اللغة العربية بأسيوط
المجلـــة العلميـــة

بحث فى
من بلاغـــة القـــرآن
التصوير بالجرس

إعداد
الدكتور/صفاء على عبدالغنى

(العدد التاسع والعشرون ـ الجزء الثانى أكتوبر ٢٠١٠)

مقـــــدمـــــــة

حينما نقول إن التصوير هو القاعدة الأساسية في أسلوب القرآن ، لا نكون قد بلغنا المدى في بيان الخصائص القرآنية بصفة عامة ، ولا خصائص التصوير القرآني بصفة خاصة ،ووراء هذا وذاك آفاق أخرى يبلغ إليها النسق القرآني،و بما تقويمه من ناحية الأداء الفني .

هنالك التناسق الذي يبلغ الذروة في التصوير،والتناسق ألوان ودرجات ،منها التنسيق في تأليف العبارات، ومنها الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ ونظمها في السياق كأن تجئ الفاصلة "وهو على كل شيئ قدير" بعد كلام يثبت القدرة .ومنها التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات ،والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض.ومنها التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن و السياق الذي يعرضها فيه([1]) .

ولما كان التصوير في القرآن تتعدد صوره وتتغير آفاقه واتجاهاته ، فإني قصدت في هذه الدراسة الاتجاه إلى مسألة التصوير بالنغمة (الجرس) ، بوصفه جزء من أجزاء التعبير القرآني في جملته ،وحتى لا أكرر الاتجاهات والأجزاء الأخرى التي اهتدى لها الباحثون ، والبحث في هذا النطاق مهما دق وارتفع يبقى في معزل عن أجل و وأبدع وسائل القرآن في التعبير ألا وهو التصوير بالجرس .

إذ هو أحد المواضع التي يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها،فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية والمعنوية ،وقد يستقل لفظ واحد،لا عبارة كاملة برسم صورة شاخصة ، لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة ،تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن،وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال ،وتارة بالجرس والظل معا .

وإنما تلتقي هذه الثلاث عند تصوير الألفاظ للمدلولات لا من قبيل الدلالة المعنوية فحسب ،ولكن من قبيل الطريقة التصويرية التخييلية ، وهو ما يعنينا خاصة في هذا المقام ...

إذ هنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة في موضعها ، و نتبين جمال اختيارها وندرك مالها من الميزة على صاحبتها ،وهذا موضوع تطول دراسته ، ومن هنا اخترت دراسة التصوير بالجرس خاصة ، لأن الموضوع في عمومه يحتاج إلى دراسات مطولة .

---

[1]) بتصرف التصوير الفني في القرآن – سيد قطب – دار الشروق ط الشرعية السادسة ١٤٢٣ ٥ ٢٠٠٢م ص٨٩،٨٨،٨٧ .

وقد تناولت الدراسة صورتين من صور الجرس التصويري في القرآن : ١) – الصورة الأولى:الجرس الناشئ من دلالة الكلمة على صوت،أو حركة أوعليهما معاً

٢)– الصورة الثانية : الجرس الناشئ من صيغة المبالغة في الكلمة ٠

والصورة الأولى أكثرت من عرض نماذجها،لأن كل كلمة فيها لها موضعها الشديد الخصوصية في الورود،أما الصورة الثانية فكثيرة المواضع ،فاكتفيت بعرض قليلة منها ،لأنها تحتاج إلى دراسات متعددة،ولعل الدراسة تلقي الضوء على مواضع الجمال المتفرقة في كتاب الله، والتي تمّ التصوير فيها باللفظة المفردة٠ولا أزعم أن هذه أول دراسة في هذا المجال ، بل ربما سبقني إليها الكثير، ولكني بدأت فيها حبًا في القرآن ، ورغبة في فهمه ،وفهم خصائصه الأسلوبية التي تتجدد الدعوة إلى دراستها كل حين٠

وأردت الوقوف على المعنى الدلالي للكلمة ،وتضافر ذلك في إيصال المراد البلاغي نظرًا لما له من صلة في توجيه المكونات الكلامية ٠وأولى المصادر التي ينبغي أن نقف عندها في ذلك هى القرآن،ذلك لأنه نبع الإعجاز البلاغي الذي كلما اغترفنا من نبعه ازددنا فهماً فيه ، كما وقفت الدراسة على بلاغة الأسلوب القرآني في استعمال الفروق اللغوية بين الألفاظ عبر أجراس الكلمات،والتي كان التصوير بالجرس فيها أسلوباً حوارياً في مواضع خاصة أوردها القرآن حصراً للمعنى و الحدث ٠

وإلى دراسة الصورة الأولى .....

أولاً : دراسة تصوير الجرس اللفظي الناشئ من الدلالة على صوت،أو على حركة، أو عليهما معاً ٠ ونبدأ بكلمة {مدرار}في قوله تعالى ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ([٢]) والتي تأتى من در اللبن ، والدمع يدرر؛ وكذلك الناقة إذا حلبت ، فأقبل منها على الحالب شيء كثير([٣]) ، والدال والراء المضاعف يدل على أصلين :أحدهما تولد شيء عن شيء ، والثاني اضطراب في شيء([٤]) والمدرار الكثير الدرّ، و مفعال مما يستوي فيه المذكروالمؤنث٠والدرة : اللؤلؤة العظيمة ٠

---

[٢]) سورة نوح آية (١١)

[٣]) لسان العرب–لابن منظور :محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ج٣– ص١٢٤ دار صادر بيروت ط أولى

[٤]) الكشاف – ج٥– ص٣٦٧– للزمخشري – دار المعرفة بيروت

تسمع الأذن الكلمة فيعطي جرسها المدوي أنها مياه كالطوفان تغمر وتتوالى ، حتى يستفيد منها كل مستفيد ، وتستدعي كل مدلولها الحسي ، بهذا التتابع اللفظي الناشئ من تكرارالراء ،وطريقة تلاوتها إلى ما يمكن أن ترسمه في الخيال،وأضاف صور استغراق المدى الطويل،مما أعطى تنسيقا دقيقاً للتصوير،فقد قابل الدعاء المبالغ فيه استجابة توازيه كمّاً وكيفاً ، فضلا عن الإيجاز البلاغي ، الذي أحاطت به الصورة البيانية المتمثلة في المجاز المرسل(٥) ، والذي كانت علاقته السببية ، إذ أطلق السماء وأراد المسبب عنها وهو المطر،ويجوز أن تكون علاقته المحلية ، لأن السماء محل نزول المياه .وبهذا كان جرس الكلمة الناشئ عن تكرار الراء سبباً تظهر فيه أعلى درجات الفصاحة ، وأبرز أرفع مراتب البلاغة بإدماج الصورة بالجرس ، ونهوض اللفظة برسم الصورة على تتابعها وتواصلها ،فكان البناء اللفظي يرسم خطاً فاصلاً بين حالين : حال الجفاف المؤلم ، وحال الغيث المفرح ، حتى يتسنى للقارئ فهم الصورة ،وأن صورة الجفاف قد طويت ،وصورة الشظف قد عرضت ،حتى لينسى المتلقي أنه (جواب)قد صيغ في سياق الأمر،وهكذا كان اختيار الكلمة هنا من بلاغة التعبير ، إذ عبرت بجرسها عن صوت الحركة التي تتم بها،وإن اللسان عند القراءة ليجسم في الخيال مقدار هذه الحركة ، ومقدار جريانها .

وهذه اللفظة جمعت بين الصوت والحركة في مدلولها التصويري ،وقد اختار القرآن الدرّ هنا بدلاً من التتابع ، أو التواصل ، تأكيدًا على الإعجاز البلاغي في استعمال الفروق اللغوية الدقيقة بين الألفاظ ، إذ كان الدرّ أنسب بالمقام لأنه أدل على الكثرة والقوة في النزول.وقد وردت اللفظة في القرآن في ثلاثة مواضع : سورة الأنعام آية (٦) و نوح آية(١١)وهود آية (٥٢) ، وبهذا كان ورودها بجرسها القوي مكتفياً بتلك المواضع ، فلا يمكن أن تحل كلمة أخرى محلها ، لما أفاده الجرس الصوتي.

ومن الكلمات التي صورت الصوت والحركة أيضا : {زحزح }والتي وردت في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾(٦) أي نحي وأبعد،وزح الشيئ يزحه زحاً : جذبه في عجلة ، ويقال : هو بزحزح عن المكان يزيح إذا تأخر، وزحه فتزحزح : دفعه ونحاه عن موضعه(٧).وقيل : هو مأخوذ من الزوح ،وهو السوق الشديد ، وكذلك الدوح.(٨)

---

٥) المجاز المرسل : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة وقرينة مانعة من إرادته .

٦) سورة آل عمران آية (١٨٥)

٧) القاموس المحيط –ج٢ –ص٢٣٤ –للفيروزآبادي

وقد وردت في موضعين : سورة آل عمران آية (١٨٥)،وسورة البقرة آية(٩٦)في قوله :"وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر" إن هذه الكلمة عند سماعها يتصور الخيال صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة من وراء هذه اللفظة المفردة،إذ يحدث جرسها صوت الحركة التي تتم بها،وحقيقة أن وضع اللفظة اللغوي هو الذي منحها هذه الصورة ، لكن استعمال القرآن ، واختياره لها من البلاغة التعبيرية في موضعيها ، إذ لو اختار تنحى بدلا من زحزح ، لفقد الخيال الصوت والحركة التي أوحت بها كلمة الزحزحة ، والتي جذبت الأنظار إلى رسم الجهد في الإبعاد ، كما صورت بجرسها جزئيات الحركة الدافعة في قوة ، وصورة الاهتزاز ، والتأرجح بأوضح مما يؤديه وصف التنحي ،أو الإبعاد ، لأنها تنطبع في الأذن ، وتصل إلى النفس فتنطبع في الحس.

فضلا عن الصورة البيانية المتمثلة في الاستعارة التبعية فيها[٩]، إذ شبه الإبعاد عن النار بكل قوة بالزحزحة ،واشتق زحزح بمعنى أبعد ، كما كانت المقابلة المعنوية بين : (زحزح عن النار) و (أدخل الجنة)لإبراز البون الشاسع بين الحالين.وهكذا كان جرس الكلمة طريقًا تعبيريًا شخص المعنى تصويريًا ، ولو استطاعت ريشة مصور الألوان أن تبرز هذه الحركة المتخيلة في صورة صامتة ، لكانت براعة تحسب في عالم التصوير، والمصور يملك الريشة واللوحة والألوان ، وهنا ألفاظ فحسب يصور بها القرآن ، فيستعيض من الوصف الحركة، والتصرف ، ويبرز ويسجل، بحيث لا يفلت في الموقف حركة ولا سمة إلا وهي مسجلة ظاهرة،كأنها شاخصة حاضرة ، ترسم مطلقة من كل ملابسة ، وما يزيد عليها ، أو ينقص إلا جزئيات في الواقع ، حتى ليخيل إلينا أننا نشهد المنظر اللحظة بكل ما فيه ،وذلك هو الإعجاز،إذ في اللفظة حياة .

فليرتل القارئ هذه الكلمة ليدرك تلك الموسيقي الرخية المتماوجة والتي مردها جرس الحروف بما يحقق الجو العام المتسق مع الموضوع ،فما الجو المراد إطلاقه فيها ؟ إنه جو سرد العذاب وكيفية تجاوزه ، فمن ذا الذي لا تحدثه نفسه في هذا المشهد بالخوف الحافل بالتأثر العميق،وهنا فقط يظهر أداء الكلمة في شرح مرادها.وهكذا أبرزت اللفظة بجرسها ما تعجز عنه الجمل والعبارات ، وكان ذلك أحد الأساليب التعبيرية التي اعتمدها القرآن في تصوير الموقف ،في صورة بلاغية راقية .

ومن التصوير بالصوت والحركة لفظة {يزلقونك} والتي وردت فى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ (١٠). و أصل الزلق : الزلل ،وأرض مزلقة و زلق :

---

٨) الصحاح فى اللغة –ج١ –٣٤٨ ص لإسماعيل حماد الجوهري ت/ أحمد عبد الغفور عطار ط رابعة ١٤٠٧هـ١٩٩٧م دار العلم للملايين بيروت

٩) الاستعارة التبعية : ما كان اللفظ المستعار فعلا،أو اسماً مشتقاً،أو حرفاً،وسميت تبعية لأنها تابعة لاستعارة أخرى .

١٠) سورة القلم آية (٥١)

لا يثبت عليها قدم ،و زلق المكان :ملسه.([11]) و في الآية:أي ليصيبونك بأعينهم ،فيزيلونك عن مقامك الذي جعله الله لك ،ومذهب أهل اللغة في مثل هذا:أن الكفار من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم إليك نظر البغضاء أن يصرعوك ([12]).وعلى هذا تكون الكلمة استعارة تبعية في الفعل ، إذ استعار الزلق للهلاك والإزالة بجامع الإصابة فى كل،واشتق من الزلق يزلقونك بمعنى يهلكونك .وهذه المادة وردت في موضعين فقط في القرآن ،مرة في سورة القلم آية(٥١)،ووردت مادة زلق في سورة الكهف (فتصبح صعيداً زلقاً)آية (٤٠)وكانت كناية عن التلف التام " فتصبح بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الأشجار زلقاً يزلق عليها لملاستها باستئصال نباتها،ولا يثبت فيها قدم،ووصف بالمصدر لأنه أبلغ "([13]).

والكلمة تستدعى صورة مدلولها الحسي ، إذ ترسم صورة عنيفة للهلاك،لأن الانزلاق حركة حسية قوية ، وتنسيقاً للحدث جاءت مؤكدة باللام والنون ،حتى يكون نطقها كبيرًا ملفتًا إلى الظلال التي يلقيها المعنى ، فصورة الزلق تضع حدًا للخيال، في تصور المدلول تكملة لمعنى الخلاص والتحطم ، وترسم جزئيات الحدث ،وتلك خاصية الكلمة هنا ، إذ يتوارى خلف مدلولها معنى الاختلال والكسر.إن التكوين اللفظي ساعد في إكمال وتكوين المدلول ،بافقاد التوازن والإسقاط،والتعبير لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني،إنما يريد الصورة كذلك ليتم التناسق مع الأجزاء، في المشهد المعروض ، وحتى تنبض الصورة الحية للمعاني،ومن هنا كان اختيار الزلق دون اختيار السقوط ،أو التنحية أو الإزالة، دليلاًعلى إعجاز القرآن في اختيار الألفاظ لمواضعها ،ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها.إذ كانت أبلغ في الدلالة،إذ حددت كيفية هذه التنحية وأنها كانت بطريقة خاصة،هى أن يصيبوه بالعين،فكانت مصورة ومحددة موظفة الإيقاع الصوتي والحركي للكلمة .وكان التعبير بالفعل المضارع متممًا للدلالة،إذ دل على تجدد الرغبة من جهتهم، وبلوغهم غاية مداها .

وإسناد الزلق للأبصار تأكيد للعرض ،وانسجام للمعاني،وهذه خطوة مشتركة بين التعبير والتصوير يزيد من قيمتها الدقة في الرسم ،وتقسيم الأجزاء وتوزيعها في الرقعة المعروضة بتوازن مظاهر الصورة ، كما كانت كلمة (يزلقونك) تمثل قمة الإيجاز،إذ تحكي حدثاً مطولا في لفظة،لأن العرب

---

[11]) لسان العرب – ج١– ص ٦٨٥

[12]) الكشاف – ج٥– ص٤٥٠

[13]) نظم الدرر – ج ٤ – صـ٤٧٠

كانوا إذا أرادوا أن يعتانوا شيئاً تجوعوا ثلاثة أيام ،ثم يعرض عليهم فيتساقط ٠ (١٤) فأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ،فقالوا : ما رأينا مثل حججه ، ونظروا إليه ليعينوه (١٥) ٠هكذا حكت كلمة واحدة هذا الحدث ، فسمت إلى أرقى مراتب الإيجاز ،وهذا إعجاز إذ أُدّاه مجرد لفظ ،وهو ما يعرف بإيجاز القصر(١٦) ٠

وبذا يتضح أن البناء الصوتي والحركي يعد أقصى مظاهر البلاغة في التعبير القرآني، إذ جمعت الكلمة بين الجرس والحركة في أداء المعنى المراد ، مما يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيخاطب حاسة الوجدان بلغة الجمال الفني، والعرض الأخاذ في تفصيل الصورة، ومحتويات المشهد،ومن هنا كانت البلاغة في التصوير الدقيق بالكلمة، والإعجاز في الاختيار التعبيري ٠

ومن التصوير بالصوت والحركة لفظة {دمدم} في قوله تعالى :﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾(١٧) دمدم : أي أطبق عليهم العذاب ، وهو من تكرير قولهم : ناقة مدمومة إذا ألبسها الشحم(١٨) وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب، وترديده ، يقال : دمدمت على الشئ أي أطبقت عليه، والدمدمة :هلاك باستئصال (١٩) ٠وهو مما تكرر فيه الفاء، فوزنه فعفل لا فعلل ٠(٢٠)وقيل :دمدم أي أرجف، وقيل : دمدمت الشئ إذا ألزقته بالأرض وطحطحته ٠والمعنى أهلكهم فجعلهم تحت التراب (٢١) ٠

وهكذا تضمنت الكلمة :معنى الاستئصال،والإطباق ،والإرجاف ،وتضعيف العذاب، فكان إيجاز القصر،إذ كلمة واحدة تضمنت كثير المعاني ٠وإن الكلمة تحدث بجرسها عن صوت الحركة التي تمّ بها أخذ قوم صالح بالعذاب ، إنها صورة الثقل والعنف الذي يخرق الأذن ، ويحدث دويًا وطنينًا يؤديان المدلول الحسي لصورة العذاب، إننا عند سماع الكلمة نستدعي قيمة اللفظ المصور للفزع والعذاب

---

١٤) معاني القرآن –للفراء –ص٤٦٥– ط ثانية – عالم الكتب –بيروت – ١٩٨٠م ٠

١٥) المحرر الوجيز –ابن عطية الأندلسي –ج٤–ص ٢٣٤ ت / عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣٥١٩٩٣م

١٦) إيجاز القصر: إخراج المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة مع عدم الحذف ٠

١٧) سورة الشمس آية (١٤)

١٨) روح المعاني –للألوسي –ج٣٠–ص١٤٦–دار إحياء التراث العربي –بيروت –١٤٠٥–١٩٨٥

١٩) الجامع لأحكام القرآن –للقرطبي –ج٢٠–ص٧٩– دار إحياء التراث –بيروت –١٩٦٧

٢٠) لسان العرب – ج١ –ص٣٧٦

٢١) فتح القدير –للشوكاني –ج٥–ص٤٥٠–المكتبة الفيصلية –مكة –بدون ٠

بعد الأمن والنعيم اللذين رغد فيهما قوم صالح زمناً ، ففي ومضة عين نقلهم من العمران والحياة إلى القرى المهلكة والموت،إذ يبث اللفظ بموسيقاه وبنائه تقابلا بين الحالين ،وهي صورة تستغرق مدى أطول في الخيال، لولا وجود كلمة (دمدم) ، إذ كان التعبير راسمًا للسرعة وعدم استغراق مرحلة زمنية، بوجود الفاء الدالة على السرعة والترتيب ، لتؤدي تناسبًا في الإيقاع ، وتنسيقًا للجو كله في سرعة تستوعب دقائق الجزئيات، لتحديد المدة المقررة لبقاء المشهد معروضاً على الأنظار في الخيال ، ولهذا مرّ المشهد سريعاً خاطفاً ، يكاد الخيال يلاحقه ،وقد استعمل النسق اللفظي في تقصير عرض المشهد بالتعقيب ، ولهذا تكررت الفاء أربع مرات،لتحرك المشهد حتى لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكنًا ، بل تتحرك كل الأجزاء فيه ، وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير.وأظهرت الكلمة الحركة السريعة القصيرة الموجة ، القوية والشديدة الارتجاف ، لتشترك في رسم الهول العريض العميق ، فالمسألة ليست مسألة ألفاظ إنما هي لوحة،وجو،وتنسيق رفيع ، في التصوير ،إذ أدّاه مجرد التعبير الطامر لكل حياة، ولها جوها الغامض ،حتى لنتساءل : ما هي أجزاء الصورة هنا ، أو محتويات المشهد ؟ إنها صورة التراب والموت والخراب،لا يبرز فيها من الأحياء شئ ،وما تلقيه في الحس من استهوال ، بل إننا نقف عند التعبير :(ربهم) "إذ أضيفت كلمة رب إلى ضميرهم لتفخيم الخبر لإزالة المنازعة في عقيدة التوحيد ، فلها دلالة بلاغية عميقة ، من إقامة الحجة عليهم بطريق الكناية للنص الظاهر على صلة كلمة (رب) بالمضافة إليه ، وهي إضافة تقترن فيها الدعوى بدليلها كالكناية "([٢٢]).

بل لم تقف الصورة فقط عند هذا أيضًا عرضت الفراغ السريع من آثار الدمدمة في قوله (فسّواها)، حتى تنمحي من الخيال صورة البيوت ، وجميع الكائنات ،وهذا ما يعرف بوحدة الرسم ، ألا إنه الإبداع في وحدة الأجزاء ودقة التصوير.وعلماء البلاغة يسمون مثل هذا مراعاة النظير مما يحافظ على الانسجام العام للتعبير.

هذا و لم ترد الكلمة إلا في موضع واحد من كتاب الله ،وكأنها بذلك تؤكد خصوصية بهذا الحدث فقط ، و بهؤلاء القوم خاصة ، فأثار الجرس تلك الخصوصية بإثباتها لقوم ثمود .

بل تتناسق الكلمات جميعاً بالسجع في فعقروها وسواها وعقباها وفي بذنبهم وعليهم إن الموسيقى هنا فيها دمدمة تناسب جو الجحود وشدة الأثر،فلما أراد لهذا كله إطاراً مناسباً ، اختاره من الجو

---

[٢٢]) دراسات جديدة في إعجاز القرآن – ص٢٩٥ – د/عبد العظيم المطعني مكتبة وهبة ط أولى١٤١٧-١٩٩٦م.

الصاخب المعفر كذلك لدقة التنسيق ، وجمال الاختيار، وهكذا تتبدى الموسيقي الداخلية في بناء التعبير موزونة بميزان شديد الحساسية ، تمليه أخف الحركات والاهتزازات هو كامن في نسيج اللفظة المفردة ،فناسبته لفظة دمدم. ثم تكتمل الصورة بقوله : {ولايخاف عقباها }([23]) كناية([24])عن تمكن الله من الثأر،و يكون المثل كناية عن هلاكهم عن بكرة أبيهم ،فجملة المشركين قد غلبوا،حيث لم يترك من يثأر لهم .

ومن التصوير بالحركة والصوت لفظة {كبكبوا} في قوله تعالى :

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾(٢٥)

كبكبوا أي ألقوا في جهنم ، وقيل: قلبوا على رؤسهم ، وقيل : ألقوا بعضهم على بعض، وقيل: جمعوا، مأخوذ من الكبكبة وهي الجماعة ([26]).والكبكبة تكرير الكب وجعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة.([27])وقيل : قلبوا، وصرعوا، ورموا، قلبًا عظيمًا عنيفًا كثيرًا بعضهم إثر بعض ([28]). فيخيل جرسها الغليظ صوت الحركة التي تتم بها ، وغلظة الكيفية التي يدفعون بها ، كما تلقي ظل الإهمال في الإلقاء ، والدفع الجافي، والإكراه والشدّ ، حتى أن الصوت ليصل إلى الأذن عنيفًا ملحًا شاقًا للهواء شقًا ، وحقيقة إن وضع اللفظة اللغوي يمنحها هذه الصورة ،واستعمال القرآن الخاص لها باختيارها في موضعها يحسب بلا شك في بلاغة التعبير،إذ لو كان التعبير :(فألقوا أو رموا أو دفعوا) لخف الجرس ،ولضاع الأثر المنشود،ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها .

إذ جسم المعنى بالصوت والصورة ،إن قراءة الكلمة وحدها يلقي في الروع ما يلقيه مع الاختلاف في مضمونها ،بل إن هذا الاختلاف هو من بلاغة وإعجاز التعبير، إذ كانت الكلمة جامعة لمضامينها ، وهذا قمة الإيجاز إذ استقلت كلمة برسم الصورة، مما يشعر المتلقي بالإثارة ، فهؤلاء القوم يدفعون ،ويطرحون، و يهملون ،ويكتظون مما ضاعف أيضا من وقع العذاب ،ومما يروع الخيال ،وحتى

---

[23]) سورة الشمس آية (١٥)

[24]) الكناية : ذكر اللفظ وإرادة لازم معناه ،مع جواز إرادة المعنى الحقيقي للفظ .

[25]) سورة الشعراء آية (٩٤)

[26]) فتح القدير ج٤– ص١٠٢

[27])الكشاف مج٣–ص١١٩

[28])نظم الدرر للبقاعي–ج–ص ط أولى مجلس دائرة المعارف–١٣٩٩هـ–١٩٧٩م–

تكتمل أجزاء الصورة قال: هم والغاوون ، إشارة إلى وحدة النهاية ،واشتراك المصير ، كما أن تقديم فعل الكبكبة عناية واهتمام بالحدث ،حتى تلتفت العقول إليه ،بل إن اختيار التعبير لكلمة الغواية هنا دون الضلال الغرض منه أنهم بلغوا غاية مداه ،بل تجاوزوا الحد ، مما يؤكد عمق البناء في تأليف العبارات ،وتناسق ذلك مع الوظيفة التي تؤديها،والتعبير باسم الفاعل أو الجملة الاسمية هنا دال على الثبوت والدوام، بل إن التعبير ب(فيها) ولم يقل إليها ، دلالة على استغراقها إياهم استغراق الظرف للمظروف ، كناية عن إحاطة جهنم بهم ، وأنهم في قعرها .

ومن التصوير بالصوت والحركة لفظة {حصحص} في قوله تعالى ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ([29]) الحص والحصاص: شدة العدو في سرعة ،وقد حص يحص حصاً، وحصحص الشئ : بان وظهر،والحصحصة تحريك الشيئ في الشيئ حتى يستمكن ويستقر فيه ،والحصحصة :المبالغة ،يقال حصحص الرجل إذا بالغ في أمره ،وقيل اشتقاقه من اللغة من الحصة أي بانت حصة الحق من حصة الباطل .([30]) وقيل : سير حصحاص :أي سريع ليس فيه فتور ([31]) و الحص :ذهاب الشعر ..والأحص الزمن الذي لا يطول شعره .وأصله حصص ، فقيل حصحص،كما قال :كبكبوا في كبوا ،وكفكفت في كفف .وأصل الحصّ استئصال الشيئ ،يقال حصّ شعره إذا استأصله جزّاً([32]) .

في هذا التعبير ألوان من التناسق ، وإكمال معالم الصورة ، إذ تسمع الأذن الكلمة فيتصور الخيال الخطوة والسير والتحرك ،مشعرة بالقدوم والظهور بعد خفاء مما يساعد على إكمال معالم الصورة الحسية ،والملابسات الدقيقة ،وأدق ما فيه هو تلك الحركة التي بثتها الكلمة تنسيقًا لجو الاعتراف الذي خرج من الأفواه بعد سنوات الحبس ، وكأن الحق قد برز بعنف بعد غياب ،والباطل قد سقط بعد ثبات ، حيث يعمل الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة ، فالصورة الحاضرة هي الحقيقة بكل ما تحمل الكلمة من معنى،والصورة الماضية هي صورة الظلم والسجن والباطل ، وبين الصورتين مسافة بعيدة يريد التعبير إبرازها لبيان هذه المفارقة ،ولهذا أغفل المراحل بينهما لتؤدى المفارقة الواضحة غرضًا خاصًا للتقابل التخييلي بين حال وحال،ولهذا كانت

---

[29]) سورة يوسف آية (٥١)

[30]) الصحاح – ج ٢– ص١١٥

[31]) اللسان – ج١– ص٣٨٧

[32])المفردات – للراغب الأصفهاني ص١٦٥

الصورة البيانية مؤثرة هنا،حيث بدت الاستعارة مشعرة في اللفظ بالحيوية،إذ كانت الاستعارة المكنية([٣٣])، فقد شبه الحق بالبعير الذي يلقي مباركه ليناخ ، ثم حذف المشبه به ،ورمز إليه من لوازمه ،هو الحصحصة أي ألقى ثفناته للإناخة ([٣٤])٠

ويحس المتلقي أن الحق حاضر ومشاهد لأن الإحساس بالمغيب حاضرًا مما يلمس الوجدان ،ويهيئ لدعوة الإيمان، مما يلقى للعبارة ظلًا خاصًا يلحظه الحس البصير حينما يوجه إليها انتباهه ،وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية ،وتبدل الحال إلى الأمن بعد الخوف ، والعدل بعد الظلم ، وظهور الشأن بعد الغياب ٠ولهذا لم ترد الكلمة إلا في هذا الموضع خاصة لإبراز قيمة خاصة بيوسف عليه السلام ، منبعثة من البناء اللفظي الشديد الأسر ، ولعرض صورة الإنصاف ، والتي كانت بعيدة من المنظور البشري،دلالة على استقرار وتمكن وثبات الصورة عند هذا الوضع خاصة وحتى لا تتجاوزه العين ، وتقف عنده مشدوهة تستنبط المعاني والعبر٠ ٠٠فجمع الله تعالى ليوسف الشهادة والإقرار ،حتى لا يخامر نفسًا ظن ، ولا يخالطها شك ٠ كل ذلك أشارت إليه كلمة بجرسها الذي أثار في الوجدان كل هذه المعاني ،ولم يكن اختيار القرآن لحروف بعينها دون غيرها صدفة كذلك ، انظر : حصحص "الحاء حرف ترقيق ، ثم الصاد تفخيم ،إذاً ترقيق فاستعلاء ، ثم ترقيق فاستعلاء ، وكلمة الحق : الحاء استفالة فالقاف استعلاء ، وكأنك بين أمواج التردد الصوتي الطويل . وهذا التردد في أصداء الكلمة لم يكن عبثياً، ولكنه الأكثر ملائمة لجو الآية على الإطلاق، إن لكل حرف موقعه ووقعه الذي أراده الله"٠ ([٣٥])

ويشير ابن أبي الإصبع إلى ميزة اللفظة، وأنها بمنزلة الفريدة من حب العقد ،"وإذا سقطت هذه اللفظة من كلام عزت على الفصحاء غرابتها،ومنها كلمة حصص"([٣٦]) وكانت قمة الإيجاز البلاغي والتعبيري في اختيارها على ما سواها،إذ تشمل معنى الثبات ،والظهور، والكسر، والقهر، واستئصال ما عداه ،و قد أورد المفسرون هذه المعاني في تفاسيرهم ([٣٧])٠ ولهذا كان فصل الجملة التالية بقولها :

---

[٣٣])الاستعارة المكنية:ما حذف فيها لفظ المشبه به ،ودل عليه بذكر لازم من لوازمه ،وذكر هذا اللازم هو القرينة ٠

[٣٤]) بتصرف الكشاف- ج٣ – ص٢٨٧

[٣٥]) أحكام القرآن –لابن العربي (محمد بن عبد الله الأندلسي) ص٢٣٤–المكتبة الفيصلية ٠

[٣٦]) ينظر بديع القرآن – ص٢٨٧–ابن أبي الإصبع –ت/ حفني شرف ٠

[٣٧]) ينظر روح المعاني – ج١٩ – ص٢٣٩ – حاشية الشهاب للبيضاوي –ج٥ –ص ٢٥٦دار صادر –بيروت ٠وتفسير أبي السعود – ج ٦– ص١٨٧ –دار إحياء التراث العربي ٠

أنا راودته عن نفسه،بسبب كمال الاتصال([38])على تقدير أن الجملة توكيد معنوي لما قبلها ، تأكيد لهذا الإعلان الصريح ببراءة يوسف عليه السلام ،وثبات هذه البراءة . كما خلا كلامها من التوكيد لأنه في مقام الاعتراف بذنب يدعو للخجل،فلم يكن من البلاغة إذاً أن يأتي اعترافها مؤكداً ، وإن أكدت كلامه بعد ذلك بقولها "وإنه لمن الصادقين " .

ومن التصوير بالصوت والحركة لفظة { دكّاً دكّاً} في قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ ([39])

والدّك : هدم الجبل والحائط ونحوهما،يقال دكّه يدكّه دكّاً([40]) أي: وطئت الأرض ومهدت ،وسويت والجبال،وقام الخلق من قبورهم لربهم ،إذ سويت في غاية الاستواء ، من قولهم : ناقة دكاء أي لا سنام لها ([41]) .والدّك والدّق أخوان،وهو التفتت ([42]) .

إن التعبير كان أتمه وأوفاه في الجزئيات وفي الجو العام ،لقد وضع إطارًا للصورة و نطاقًا للمشهد ، بهذا التهويل ،وهذه دقة تأخذها العين في الأشكال والأحجام ، إذ تجمع في الخيال خشونة ،وفرقعة ،وهذا مشهد وحدته الضخامة الحسية ، تدق في الوصف ،وتجمع الأطراف كلها عند نقطة الزوال ، والفناء ،فما يكاد الخيال يتلفت ليراها حتى يفتقدها فلا يلقاها ،وحتى نتساءل : لم كانت هذه السرعة الخاطفة ؟ لئلا يتوهم أحد أن لمن يشرك بالله منبتا ،أو وجودًا، أو قرارًا، أو امتدادًا .والحياة هناك تطوى في غمضة عين من مبدئها إلى منتهاها، فالخيال هنا يظل يستعرض المشهد المروع ، ويكرر العملية ، وكلما زاد فزعًا وارتياعاً ، زاد إقبالا على التصور، وأكد الأسلوب هذا التصور حين عبر عن ذلك ب (إذا) التي تفيد التحقيق والتأكيد ، فهذه وقعة فسيحة بين الحاضر والمستقبل المنظور، وفي خواطر النفس ووثبات الخيال :ما بين الساعة البعيدة المدى ،والحاضر القريب بُعْد في المجهول ،ضيّق المسافة بينهما تحقق الوقوع .

---

[38])كمال الاتصال : يتحقق عندما يكون بين الجملتين من الاتصال والاتحاد ما يمنع العطف ،لأن العطف وصل خارجي .

[39]) سورة الفجر آية (٢١)

[40]) لسان العرب – ج١– ٤٥٦

[41]) التسهيل – ج ٣– ص٣٦٤

[42]) فتح القدير – ج٥ –ص٣٦٠

بل إن (كلا) اعتراض عالي النبرة يسير مع المقصود ،ردعاً وزجراً ،إذ يعرض جانب السرعة ليقول : إن هذه الأرض كلها ،ضعيفة في يد القوة الكبرى ،مما يزيد وضوح القدرة وأن المجهول يأتي في ومضة عين والحياة تطوى في غمضة عين ٠

ولم تقف دقة التنسيق عند وحدة المنظر العامة ،بل تمشت إلى دقائق الجزئيات حين قيل : دكّا دكّا ، إذ كان ذلك دقة متناهية في الوصف ،حيث ذهب بعض العلماء إلى أن هذا ليس توكيدًا لفظياً لأن المسألة تنطلق من المعنى ؛لأن تفسير الآية يدلنا على أن دكا الثانية ليست توكيدًا للأولى بل دكت الأرض دكاً بعد دك ([43]) ٠كما قيل في لبيك ،أي كرر عليها الدّك ([44])٠ دلالة على أنها صارت في غاية الاستواء ، بعد أن تمهدت فزالت جبالها ، وآكامها ، وتلالها ([45]) ٠وبهذا كانت كناية عن الاستواء التام حيث لا نرى فيها عوجاً ولا أمتاً وتلك خاصية الكناية ، إذ يراد المعنى المجازي مع المعنى الحقيقي للفظة لهذا كانت هنا دالة على التتابع في الفعل،لأنه أدق في الوصف وأليق بالمقام لما قلنا ٠

وهكذا كان جرس الكلمة هنا مدوياً يتناسب مع الغفلة التي عليها الخلق ، فكان البناء اللفظي الشديد ، المصور للهول في كلمتين ،تلمح من ورائهما الروع حاضراً، ولهذا أيضاً تجد الكلمة لم ترد إلا في المواضع الآتية : في سورة الأعراف"فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا" آية (١٤٣)كناية عن الخشوع ، وسورة الحاقة"وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة " آية (١٤) ،و سورة الكهف"فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء" آية (٩٨)، وسورة الفجر آية (٢١) ، أي وردت أربع مرات فقط ، منها اثنان في موضع واحد وهي في مواضعها تلك كناية عن الاستواء التام، اكتفاء من الأسلوب القرآني بمواضعها تلك ، تنبيهاً على جرسها الملفت في كل موضع وردت فيه ٠بل مما يلفت النظر هنا تكرار حرف الكاف في الآية أربع مرات أيضاً،مما يؤكد خصوصية التعبير القرآني،إذ لو تكررت في الكلام البشري لاتهمناه بالتنافر،ونجده بالمناظرة هنا أحد خصائص الأسلوب البارعة التي أفادت في السياق٠

---

[43]) بتصرف التسهيل لعلوم التنزيل –ج٣ –٤–٣٦ –

[44]) غرائب القرآن ور غائب الفرقان –للنيسابوري –مج ٦–ص٤٩٨ دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٦٥١٩٩٦م

[45]) نظم الدرر – ج ١٥– ص٢٩٨–

ومن التصوير بالصوت والحركة لفظة {يدعّون دعًّا} في قوله تعـالى :﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾(٤٦)

تختص هذه الكلمة بنوع من العذاب ، هو العذاب المعنوي والنفسي ،وهذا أشد إيلاماً من العذاب الجسدي ،لما فيه من الجفاء والعنف ،وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيدي المعذبين إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم،ثم يدفعون بهم إلى النار دفعاً على وجوههم ، وزجاً في أقفيتهم حتى يردوا النار(٤٧) .

وقد استخدم القرآن هذه الكلمة لما فيها من شدة وعنف ،وتصوير ذلك المشهد العنيف بهذا الجرس،فالظلال التي يلقيها التعبير تؤدي المدلول الحسي للوجدان هنا،لأن الدعّ هو الدفع في الظهور بعنف(٤٨) .ليصل الألم مداه باستعراض هذه الصورة التي ترهب الحس المرهف ،وتلبي الغرور الإنساني، فكان الإطار من الصورة ،والصورة من الإطار،لدقة التعبير حتى ينكشف الخفي، هو مشهد مختصر سريع ،ولكنه متحرك شاخص في صور متتابعة يتلو بعضها بعضاً في الاستعراض، وهذه الصور ترسم كذلك في وسط حي : هؤلاء آدميون بينهم وبين المستمعين صلة الجنس المشترك ، والحس المتشابه ، فهي ترتسم في نفوسهم حية ويصل الشعور بها من هؤلاء إلى هؤلاء بالمشاركة الوجدانية ، وبالتخيل المحسوس فإذا قرأها القارئ تمشت رعدة الهول في حناياه ، كأنما يلقاه ، وهذا هو السر في التعبير هنا بالدعّ،وهو إعجاز يزيد قيمته أنه يعتمد على العرض والتشخيص باللفظة وحدها، حتى يحس القارئ أنه واقع مشهود، أشد في النفس هولا، وأكمد في التصوير لوناً .

إن السامع ليمسك أنفاسه في هذه اللحظة التي لا يرى لها خلاصاً ،ولهذا كانت بلاغة التعبير هنا في اختيار الدعّ هنا دون الدفع – مع أن الحروف لا تكاد تختلف إلا في الثانية بزيادة حرف الفاء –لأن الدعّ يصور مدلوله بجرسه وظله جميعاً ، "وهذا الدعّ في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إرادي فيه عين ساكنة هكذا : (أغ) وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى الدعّ " .(٤٩)

فكانت الكلمة مصورة للصوت والحركة معاً ،وهذا إعجاز .إذ لم ترد الكلمة في القرآن إلا في المواضع الآتية : سورة الطور (١٣) ، وسورة الماعون"فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ" آية (٢) "أي يدفعه

---

٤٦) سورة الطور آية (١٣)

٤٧) الكشاف – ج ٤ – ص٢٣

٤٨) لسان العرب – ج٣ – صـ٣٩٤

٤٩) التصوير الفني – صـ٩٥

دفعاً عنيفاً بغاية القسوة،ويظلمه ولا يحث على إكرامه لأن الله نزع الرحمة من قلبه "([٥٠])وتكون بذلك كناية عن صفة القسوة والجفاء والشقاوة لأن نزع الرحمة لا يكون إلا من شقي . فكان ورودها في هذين الموضعين يرسم مقدار استعمال الجرس ،إذ يكفي الكلمة تشخيصها بنغمتها للمعنى وهي في الموضعين كناية عن الجفاء والقسوة .

ومن التصوير بالجرس لفظة {أبابيلَ} في قوله تعالى﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ ([٥١]) أبابيل و إبالة : جماعة ، وقيل جماعات من ههنا ، وجماعات من ههنا ([٥٢]) وقيل: طير يتبع بعضها بعضاً إبيلا إبيلا : أي قطيعاً خلف قطيع ، وهذا يجئ في معنى التكثير،وهو من الجمع الذي لا واحد له ،وقيل :هو من الوبال ، فإن كان من الأول فقد قلبت همزته في الرواية الثانية واواً، وإن كان من الثاني فقد قلبت واوه في الرواية الأولى همزة ، كقولهم : أحد ،وأصله وحد ([٥٣]).والأبيل :الراهب سمي به لتأبله عن النساء والوابل :المطر الكثير القطر.والأبابيل :الجزائق وهى الجزمة الكبيرة من الطير ، شبهت الجزمة من الطير في تضامها بالإبالة([٥٤])والأبيل العصا ويطلق على الراهب ، وكانوا يسمون عيسى بن مريم : أبيل الأبيلين ([٥٥]) وقد وردت في كلام الأعشى :

طريق وجبار رواء أصوله ****** عليه أبابيل من الطير تنعب ([٥٦]) وهنا موضع تأمل لطيف في هذا التصوير بالجرس،يحكي عجيب الحدث والصورة ويعرض ضرباً من الإهلاك ، لم يحدث في التاريخ بهذه الصورة إلا مرة واحدة ، ولهذا لم ترد الكلمة فقط إلا في هذا الموضع ،وقد سار النسق على جعل الصورة ماضية ،منطوية بالنسبة للمخاطبين ،ولكن الصورة الحكية تعطى إشعاعاً خاصاً يناسب خصوصية الحدث، إنه التجمع و التجمهر في العدد ،والقوة، والكثرة في الإصابة ،والتخصص في وحدة الهدف ،والشدة في الوقع والتأثير،والاسترسال في العرض، وهو مشهد يوقع في النفس تأثراً وجدانياً خاصاً ، فهذه القطع المتجاورة من الأشكال ما هدفها ؟ ولم هذه الصفوف العسكرية المنتظمة ؟ وتأتى الإجابة : ترميهم بحجارة من سجيل . انظر لهذا الحوار الخفي

---

[٥٠]) نظم الدرر – ج ٨ – صـ٥٤٣

٥١) سورة الفيل آية (٣)

[٥٢]) معاني القرآن للزجاج – صـ٥٦٠ـت/ عبد الجليل عبده شلبي – عالم الكتب بيروت – ١٩٨٨م .

[٥٣]) القاموس المحيط – ج ١ – ص٣٤١

[٥٤]) الكشاف – ج٤ – ص ٢٨٦ –

[٥٥]) المعجم الوسيط – ج١– ص٣– دار الدعوة – تحقيق مجمع اللغة العربية –

[٥٦]) ديوان الأعشى – ص ٣١٢ – شرح/د عمر فاروق الطباع – دار القلم – بيروت .

الدائر بين القارئ والمتلقي وكأنه قد تساءل ، فجاءت الإجابة ،وهذا ما يعرف في البلاغة بالفصل لشبه كمال الاتصال،أو الاستئناف البياني([٥٧]) .

للكلمة ظلال بجانب مالها من جرس ، ترسم حركة حسية قوية ، تبرز وتجسم ما حدث للحس البصير ، حين يستدعى مدلولها الحسي ، ويتخيل الصورة ، ويظل عاكفاً عليها ، وتتبدى شتى الملابسات ، ويدور الخيال مع هذه النهاية التي لم تقع عليها العين ، وإن شاهدها الإحساس ، وتدب بعدها العواطف والانفعالات ، حتى يستقر في النفس الغرض من مثل هذه الكلمات .ويؤكد ذلك التنكير في كلمة طير فهو إما للتفخيم ،لأنها كانت طيراً أعاجيب ، أو للتحقير،لأنها كانت صغار الجثة، وهذا أدل على كمال القدرة([٥٨]) .

ويتناسق مع الجرس الصورة البيانية،المتمثلة في التشبيه البليغ المحذوف الأداة،إذ شبهت الجماعات العظام من هذه الطير في تتابعها وتضامها و كثافتها ، بالحزمة الكبيرة من الإبل المؤبلة،بجامع التتابع والاتحاد والتعاظم .والغرض من هذا التشبيه هو بيان الحال ،لأننا جاهلين للصفة بالنسبة لهذه الطير قبل وصف القرآن لها ، بل تكتمل الصورة البيانية بالاستعارة في الحرف (على) للدلالة على إحاطتها بهم ،وتمكنها منهم تمكن المستعلي،إذ لم يقل أرسل إليهم،لما في (على) هنا من دقة التمكن والاستعلاء ، فتجاورت الصورة البيانية مع الإيقاع الظاهري ، فاكتمل الأداء وتعددت الوظائف .

وأيضاً تصور الكلمة الإيجاز البلاغي ، حيث دلت على أنها ذاهبة و جائية تنقل الحجارة بمناقيرها وأرجلها فتبلبل عليهم فوق رؤسهم ([٥٩]) .مما يؤكد خصوصية الأداء القرآني في التعبير، وأن الكلمة تصور بالصوت والحركة المعاني ، كما تصور الكاميرات المشاهد والأحداث ،وتلك هي البلاغة في أرقى صورها .

ومن التصوير بالجرس كلمة {صرصر} في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ ([٦٠])

الريح الصرصر والصرة : الشديدة البرد ، مأخوذ من الصِّر،وهو البرد عامة ([٦١]) ، وقيل : هي الشديدة الصوت ([٦٢]) .كأنها التي كرر فيها البرد الكثير ([٦٣]) . إن الهول هنا يقاس بسرعة

---

[٥٧]) شبه كمال الاتصال :أن تكون الجملة الثانية جوابا عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ،فيفصل بينهما .

[٥٨]) غرائب القرآن و رغائب الفرقان – مج٦– ص٥٦٦

[٥٩]) الدر المنثور للسيوطي – مج ١٦ – ص٦٦٠– دار هجر للبحوث مصر ١٤٢٤ ٢٠٠٣م

[٦٠]) سورة الحاقة آية (٦)

الريح ، لو أردنا في زمننا هذا – مع تقدم الأجهزة وتطورها – قياس سرعة الريح ، وهذا القياس يستعرض إهلاك فئة في الزمن الماضي ،إنهم قوم عاد ، قوم نبي الله هود ، إنه مشهد مختصر واضح ،يعرض للأذن أولا ثم للخيال ثانياً ، ليترك للنفس مدة كافية للتأثر ، لتراه بالحس الشاعر المتأثر،ويتيح لها التأمل ،فيخيل حركة الريح في شكل حسي،ويصورها في شكل آدمي ،لأنها في هذه الصورة أوقع وأظهر ، فتنتقل من معنى مجرد إلى شيئ له كثافة ووزن ، فالصرصر لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها،وعنف جرسها وشقه للهواء شقاً ،حتى يصل للأذن مصرصراً ، ذا دوى وطنين، يرسم صورة الموضوع ، بظله الذي يلقيه في الخيال ،حينما يوجه للعقل، فيمضي في عرضه مطرداً ، حتى يصل مباشرة إلى البصيرة ،ويتخطاها إلى الوجدان . لقد عمد التعبير إلى لمس البداهة ، فكانت المصائر المصورة حتى تدركها الفطرة المستنيرة ،وخاطب المنطق الوجداني في الجدال والنضال.

ولهذا نجد القرآن لم يستعمل هذه اللفظة إلا في المواضع الآتية :سورة فصلت آية (١٦)،وسورة القمر آية (١٩) ،وسورة الحاقة آية (٦) ([٦٤]) .أي أنها لفظة خاصة الورود بقوم عاد،في مواضعها تلك ،فنجد التعبير القرآني اختصهم بصورة عذاب الصرصرة ، كما اختص ثمود بالدمدمة فيما سبق من دراستنا هذه ، لينبه الأذان الصم إلى الحقائق الغائبة ، إذ جمعهم الوصف الخاص في قوله تعالى : " فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود " ([٦٥]) جمعهم عذاب الصاعقة هنا، ثم حدد التعبير النوعية ، بالصرصر و الدمدمة ، إذ جمعهم التكذيب والكفر، ثم الجزاء والمصير، لكن نوع الريح قد اختلف ، والكلمة القرآنية تخضع لاعتبارات دقيقة ، وتؤدى معاني محكمة ، هى البلاغة في أعلى مستوياتها،لذلك كان استخدام الريح هنا دون الرياح ،بإفرادها "لأن الله أهلكهم بريح واحدة ،لأن تصرف القدرة الإلهية فيها منصباً على الريح مفردة لا مجموعة فهي ريح لا رياح.. وتجئ الريح مفردة في مجالي الخير والشر ، سواء كانت نكرة أو معرفة ، و استعملها القرآن في الشر أكثر من الخير، وفي كل موضع منهما تقرن بأوصاف تنبئ عن كونها للشر مثل : القاصفة

---

[٦١]) لسان العرب – ج ٣ – ص ٣٩٦

[٦٢]) فتح القدير – ج ٥ – ٢٧٩

٦٣) الكشاف – ج ٤ – ص ١٤٩

٦٤)المعجم المفهرس لألفاظ القرآن–محمد فؤاد عبد الباقي–ص٤٠٧–دار الحديث–١٤٠٧هـ–١٩٨٩م

٦٥)سورة فصلت آية(١٣)

أو العاتية أو العقيم أو المصفرة ،أو تكون للخير : فيصفها بالريح الطيبة"([66])٠ ولذلك وصفها هنا بالعتو في قوله : عاتية إذ شبهها بالإنسان العاتي المتجاوز لحد الطاعة والانقياد ، ثم حذف الإنسان ورمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو العتو على سبيل الاستعارة المكنية ،وإسناد العتو للريح استعارة تخييلية قرينة المكنية ٠

وهكذا أطلق الجرس في التعبير أصداء ، وآفاقاً ، تعرض مظاهر القدرة ، وتلفت النظر إلى المعاني، فكان التصوير به أسلوباً حوارياً في مواضع خاصة، أوردها القرآن في مواضعها حصراً للمعنى وللحدث ٠

ومن التصوير بالجرس لفظة { وكزه } الواردة في قوله تعالى : ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾([67]) ٠ أي : طعنه بجمع كفه ، وكأنه كاللكم ، وقيل : وكزه بعصا كانت معه ، والوكز : الضرب والدفع ([68])٠ ووكزه مثل نكزه ، ويقال : وكزه أيضاً : ضربه بجمع يده على ذقنه والوكز كالـوعد : الدفع ([69])٠

هنا التصوير القرآني يصور الانفعال العصبي للبشر،برسم النماذج الإنسانية ،من الشخصيات ، ثم تجاوز حدود الشخصية المعنية إلى الشخصية العامة ،وهذا من خلال قصة موسى عليه السلام ، في عرض للصورة العصبية ، إذ توضح الدفع العصبي ،وكيف يؤذي صاحبه ، وإلام يؤدي التهور والاندفاع ، إنه هيئة وحركة تنفرد بهذا التعبير(الوكز) في قصة شخصية موحدة بارزة ونموذج إنساني واضح ، يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني فيما يعرضه من المشاهد،فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال ،عملت فيه الريشة المعجزة عملها ، ويوضح الترعة والعصبية عند موسى قبل النبوة ، ثم لنرى ماذا يصنع الزمن ف أعصابه تلك بعد مرور سنوات ؟ إن قصة موسى عليه السلام وردت في حوالي الثلاثين موضعاً ، لم ترد فيها كلمة وكزه إلا في سورة القصص ،لأنها تعرض حلقات كبيرة من جسم القصة ، وبالتأمل وجدنا التعبير اختار(وكز)بدلا من طعن أو ضرب ، لأن حركة الجسم تعرض من إشعاع التعبير ، وأن اللفظ يصور في الخيال جهد موسى عليه السلام في الضربة ، ومقدارها ، بل يشرح كيفيتها كاملة ، متحركة بكلمة واحدة ، ودلالة على قوتها ؛ يأتي

[66]) بتصرف دراسات جديدة في إعجاز القرآن ص ٥٦– ٥

[67]) سورة القصص آية (١٤)

[68]) القاموس المحيط – ج٤ – ص٥٤٦

[69]) مقاييس اللغة – ج ٦– ص٤٢٢ لأحمد بن فارس ت /عبد السلام هارون –١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م

أثرها في قوله (فقضى عليه) لتأثير المشهد، فهذا التعقيب الذي تمثله الفاء لطي المنظر عندها ،فكانت السرعة الخاطفة دالة على قوة موسى البدنية والجسمية على سبيل الكناية ،وقوة الضربة بالتالي ،إذ هو رجل أيد لم يعط أحد من أهل ذلك الزمان مثل ما أعطي من القوى الذاتية والمعنوية ([٧٠]) في غمضة عين قتل الرجل،ولذلك استعمل النسق اللفظي في تقصير عرض المشهد والدقة في الوصف ،وهكذا اشترك الجرس والظل في كلمة واحدة مما أبرز المدلول الحسي والوجداني ،فكانت البلاغة في أقوى مظاهرها، لأننا لو استبدلنا اللفظة بكلمة أخرى لخف الجرس، ولضاع الأثر المنشود ،ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسم هذا اللفظ واستقل برسمها لإبراز الحدث والكيفية ،فترتسم في الذهن الصورة ويثبت في العقل المعنى ،وهذه أرفع ألوان الفصاحة اللفظية في التعبير .

ومن التصوير بالجرس كلمة {شواظ} في قوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾([٧١])

الشواظ : جمع شظية ،والشواظ اللهب الذي لا دخان فيه ،وقيل : قطعة من ليس فيها نحاس ، وقيل الشواظ لهب النار ولا يكون إلا من نار وشئ آخر يخلطه ([٧٢])و شاظ : أي هاج ، والشظية : مفرد شظايا .وقيل :اللهب الخالص والنحاس الدخان ([٧٣]) إن التعبير يصور عذاب جهنم بالقذيفة ، وهو مصطلح حربي ، لم يعرفه المخاطبون آنذاك ، يرمى إلى توضيح المعنى المجرد وتثبيته ، ثم تبدأ الحركة المتخيلة بكلمة يرسل التي توحي بالاسترسال واحدة تلو الأخرى من هذه الشظايا،تكاد العين تبصر مداها بينما الخيال يتملّاها ،إن كلمة شواظ يقف عندها السمع والخيال ،وإن نغمتها تبعث رعدة الخوف،وهذه خطوة أخرى في تناسق التصوير أبعد من الخطوة الأولى يزيد من قيمتها أن لفظة مفردة هي التي ترسم الصورة ،تارة بالجرس الذي تلقيه في الأذن ،وتارة بالظل الذي تلقيه في الخيال ، إن اللسان يكاد يتعثر في نطقها من شدة حروفها حتى نصل إلى نهايتها ، فتبدأ الحركة التي تثقل الأذن ، إنها شظايا تمرق وتخترق الصوت ،ثم تصيب الهدف، يا لها من دقة في الوصف ،إذ لو قدر للكافرين في زمن نزول الكلمة أن يعايشوها، كما عايشناها من خلال الطائرات الحربية المعاصرة ،لأدركوا إلى أي مدى يصل إعجاز القرآن التعبيري ،حيث يذهب طولاً وعرضاً، في عمق وارتفاع

---

[٧٠]) نظم الدرر – ج١٤ – ص٢٥٦

[٧١]) سورة الرحمن آية (٣٥)

[٧٢]) لسان العرب – ج ٣– ص ٣٤٥

[٧٣]) الكشاف – ج ٤ – ص ٤٧

، ليشترك في رسم الهول العريض العميق ، فساعد الجرس في إكمال واتساق جو المشهد ،ولهذا الجرس وظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض تؤدى في النهاية المعنى المراد أبلغ أداء وأوفاه ، ثم كانت الدقة والشدة في الوصف بالجمع بين النار والنحاس،طريقة ترهيبية تعرض استيفاء أدوات العذاب ،كما تعطي فكرة عن التخصص ودقة التوجه ،إشارة إلى توجه النار إلى فريق من المخاطبين ،وتوجه النحاس إلى فريق آخر،أو تعدد النوعية للجنسين • ويساعد التركيب اللفظي في التنكير على الترهيب،فالنار نار عظيمة،وكذلك الشواظ وهذا علمناه من التنكير•بل كانت هذه الكلمة خاصة بهذا الموضع ،إذ لم ترد إلا في هذه الآية ، وهذا أيضاً له دلالته ، من حيث المنع والإحاطة والإصابة ، بدلالة قوله : فلا تنتصران :أي لا ينصر بعضكم بعضاً ،يعني الجن والإنس• بل إن المشهد فيه الإيجاز القصصي إذ يذكر الإنسان باستعانته في الدنيا بالجن،وها هو الوضع وقد تغير،وأصبح الجن أيضاً يطلبون النصرة فلا يجدونها ،كل ذلك في كلمتين لا ثالث لهما (لا تنتصران)•

ومن التصوير بالجرس لفظة {يجأرون} في قوله تعالى :﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ ([٧٤])

جأر كمنع،جأراً وجؤاراً : رفع صوته بالدعاء ، وتضرع ، واستغاث ، والجائر : جيشان النفس والغصص ([٧٥])وغيث جؤر : غزير وكثير •ولعل الجؤار : رفع الصوت،كما يجأر الثور ؛ومنه قول الأعشى :

يراوح من صلوات المليك ****** طوراً سجوداً وطوراً جؤاراً([٧٦]) يستعيض التعبير من الوصف الحركة والصوت،إذ يبرز الحالة الإنسانية عند العذاب ويبرز الصورة في الضمير، ذلك أن الإنسان لا يتبين ضعفه في فترة الرخاء ، فإذا جدّ الجدّ وجاء الشّد ، ظهر هذا الضعف على أتمه ، وهذا النموذج تصوره كلمة واحدة كما تصور الخور، فترسم الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة ،وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية دون أن تغفل منه قليل أو كثير، فأي حركة نفسية لم تبرزها ؟ دلت بجرسها عن ارتفاع الصوت ، كما دلت عن شدة الاستغاثة ،فهناك فرق بين التضرع و الجؤار،فالتضرع يستعمل فيما إذا كان عن صميم القلب لا باللسان فقط ، ولذا عبر عن

---

[٧٤]) المؤمنون آية (٦٤)

[٧٥]) لسان العرب – ج ٣– ص٣٤٢

[٧٦]) ديوان الأعشى – ص٢٦٥ –

استغاثتهم أولا بالجؤار الذي هو من صوت الحيوان فلا منافاة بينهما ،وليست هذه حادثة تقع مرة وتمضي، ولكنها نموذج مكرر في بني الإنسان، وهذا ما أشارت إليه دلالة المضارع هنا ، فهي تخرج عن دلالة استحضار الصورة ، إلى معانٍ أخرى يشي بها السياق القرآني ، من ذلك دلالة كثرة وقوع الفعل وتكراره ، أو تجدده واستمراره ، يصور الحركة الدائبة ، وذلك أقوى وأشد في تثبيت المعنى المراد،وها قد قابل الترف الذي عايشوه زمناً بالعذاب الدائم أبداً ، وتخصيص المترفين بأخذ العذاب ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم أيضاً لغاية ظهور انعكاس حالهم ، وأيضاً إذا كان هذا ثابتاً ،فما ظنك بحال الأصاغر والخدم ([77]) والجؤار هنا استعارة مكنية ، إذ شبه إفراطهم فى الدعاء وتضرعهم بجؤار الوحشيات ونحوها ([78]) ،ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيئ من لوازمه ، وإسناد الجؤار قرينة المكنية ،وهى توحي بقوة الصوت،كما توحي بالنفور من هذا الصوت لبشاعته ، وارتفاع أصواتهم .

ولهذا نجد أن الكلمة لم ترد إلا في ثلاثة مواضع([79]) : موضعين في سورة المؤمنين آية (٦٤)وآية (٦٥)، وثالث في سورة النحل آية (٥٣) .

فيخيل جرسها الغليظ غلظ الصراخ المتجاوب من كل مكان ، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة ، كما تلقي ظل الإهمال لهذا الصوت الذي لا يجد من يلبيه ، وتلمح من وراء ذلك كله صورة المحنة التي هم فيها .

ومن التصوير بالجرس لفظة {انشزوا} فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾([80])

النشز : المتن المرتفع من الأرض أو الوادي ، والجمع أنشاز ، ونشوز ، و أنشزت الشئ إذا رفعته عن مكانه ، و نشز في مجلسه بالكسر والضم : ارتفع قليلا ، ونشز الرجل إذا كان قاعداً فقام وركب([81]) ومنه نشوز المرأة مجازاً عن بعدها عن مضجع الزوج ،والمعنى في الآية : إذا قيل قوموا إلى

---

[77]) روح البيان – إسماعيل حقي –مج ٦ – ص ٩٠ دار إحياء التراث بيروت

[78]) المفردات ص٤٥٦

[79]) المعجم المفهرس ص١٦٣

[80]) سورة المجادلة آية (١١)

[81]) لسان العرب – مج ٥ – ص ٤١٧

الصلاة أو قضاء حق،أو شهادة فقوموا أو إذا قيل لكم قوموا إلى خير، أو تفرقوا من مجالسكم ، فقوموا ([٨٢]) وقيل : انهضوا للتوسعة على المقبلين ([٨٣])

تسمع الأذن الكلمة فتقف عندها بسبب جرسها ، فهي مفرق الطريق بين السطوح المستوية والقمم المتدرجة ،فللتعبير تصوير،فتحس أن الكلمة تصور معنى الارتفاع عن الأهواء إلى معنى الطاعة للأمر،وفيه ألوان من التناسق الظاهر والمضمر،ومن لطف الكناية عن ملابسات دقيقة،وأدق ما فيه هو ذلك التشابه بين المتن المرتفع من الأرض،وبين القائم من المجلس لخيرٍ هو أعم نفعاً من مجلسه السابق ، فكما يرتفع الشئ عن نظيره فيسمو،كذلك يرتفع المؤمن عن أغلاط المجالس بأن يسمو عليها إلى ما فيه سموه في الدنيا والآخرة،وتنسيقاً لجو التكبير والتسامي جاءت كلمة (انشزوا) والتي تحتاج في نطقها إلى التروي،بسبب اجتماع الشين والزاي ،مما يعسر نطقها سريعاً،فاللسان يتعثر فيها حتى يصل إلى نهايتها فرسمت بنطقها صورة الموضوع ، واستدعت صورة مدلولها الحسي،حتى يتعاظم خُلق المؤمن فوق الهفوات والزلّات وحتى يصير من مظاهر سلوكه ،وهنا تبرز قيمة اللفظ المصور للعلو والارتفاع في موطن الجلوس والانخفاض، فالنشز جرس في الأذن وظل في الخيال ، لذلك اختير التعبير به في هذا الموضع ولم يعبر بالقيام مثلا ، أو الارتفاع ، لأن الفوارق دقيقة لطيفة ،إنما تلتقي عند تصوير الألفاظ للمدلولات،لا من قبيل الدلالة المعنوية فحسب ولكن من قبيل الطريقة التصويرية التخييلية ،وهو ما يعنينا خاصة في هذا المقام . لذلك كان النشوز أخص من التفسيح من وجه ،فهو من عطف الأخص على الأعم للاهتمام بالمعطوف ،لأن القيام من المجلس أقوى من التفسيح من قعود ، فذكر النشوز لئلا يتوهم أن التفسيح المأمور به تفسيح من قعود ([٨٤]). ثم تأتي سرعة الاستجابة الدالة عليها الفاء في فانشزوا تحقيقاً لغرض السرعة،يتسق مع الغرض من الآية ،يتم به التناسق في الإخراج أبدع التمام . وهكذا ترتسم صورة السرعة في جرس العبارة،فيبدو لون من البلاغة الظاهرية والفصاحة اللفظية في الخطاب والحوار القرآني عبر استخدام الأصوات لتحديد المزايا المطلوبة من الكلمات .

---

[٨٢]) الكشاف – ج٤ – ص٤٩١

[٨٣]) روح المعاني – ج ٢٨ – ص ٣٤

[٨٤]) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – ج ٢٨– ص٣٩ –الدار التونسية

ومن التصوير بالجرس كلمة {خصاصة} فى قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٨٥)

خص يخص والخصاصة : الخلل والثقب الصغير؛ ثم أطلقت الخصاصة على الفقر و الحاجة إلى الشيئ ، وسوء الحال ، والأصل اللغوي للخصاصة : الفرجة بين الأصابع و خصاص البيت : الفروج التي تكون فيه ، ومن هذه المادة قولهم : رجعت الإبل و بها خصاصة إذا لم ترو من الماء(٨٦) قيل :عبر عن الفقر الذي لم يسد بالخصاصة كما عبر عنه بالخلة(٨٧)

إذاً الكلمة تعني الفقر والحاجة،ومع ذلك اختار التعبير هنا تلك اللفظة،لأنها اجتمعت فيها كل عناصر الصدق والدقة والجمال : الصدق في عرض طور هذا الفقر،والدقة لأنه حقق غرض الصورة كاملا ،والجمال لأن جرسها وصوتها مما ينشط الخيال، وأغزر وأبلغ في مدح الأنصار؛ إشارة إلى تقديمهم المهاجرين على أنفسهم حتى إذا كانوا في عين الفقر والحاجة ،في إشارة إلى ثبات العقيدة واستقرارها، وهذا غرض ديني لا شأن لنا به هنا،لكن من الوجهة الفنية صورة شاخصة فيها الحركة ،فهي في تثبيت المعنى أشد وأقوى ،وهكذا يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني ، كالشأن في جميع الصور التي يرسمها القرآن ، إذ شبه تأثير الفقر في النفس بتأثير الثقوب في بناء البيت،فكما تحدث هذه الثقوب في البيت خللا كذلك الفقر يؤثر في النفس فيحدث في الإيمان ضعفاً، لكن الأنصار هنا تساموا على حاجتهم ، بإيثارهم المهاجرين على أنفسهم في أشد الأحوال الإنسانية : في عين الفقر و الحاجة وسوء الحال، الذي يحيط بهم من كل جانب ، لأن الخصاصة من خصائص البناء،وهذه استعارة يبرز مدلولها مقدار الإيمان ومقدار المحبة بين المسلمين آنذاك،ليس في هذا البيان شيئ من تمحل وليست هذه الدقة كلها بلا هدف وليس هذا الهدف حلية عابرة،فالمسألة ليست مسألة ألفاظ ،إنما هي مسألة لوحة وجو وتنسيق،لوحة إيمانية ،وجو أخوي،وتنسيق لحركة العبادة والخضوع ، على أساس أن هذه الوحدة الصغيرة في الموقف ، هي صورة للوحدة الكبرى في المصير،وعلى هذا فقضية الترادف في التعبير القرآني غير واقعة ،إذ كل كلمة لابد أن تؤدي معنى جديداً ،وتبعث في النفس إيحاءات خاصة . لذلك كان القصر في التعبير،بقصر معنى الفعل،أي يوقعون الأثرة لغيرهم

---

٨٥) سورة الحشر آية (٩)

٨٦) المعجم الوسيط – ج ١–ص ٣٩٠

٨٧) المفردات – ص٣٢٤

تخصيصاً لهم بها ،لا على أحيائهم مثلا ،بل على أنفسهم ،وذكر النفس دليل على أنهم في غاية النزاهة من الرذائل ،لأن النفس إذا طهرت كان القلب أطهر([88]) .

ومن التصوير بالجرس كلمة{نضاختان} في قوله تعالى :﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾([89])النضاخة من العيون: الفوارة الغزيرة،ونضاختان:فوارتان ([90])،وقيل ممتلئتان لا تنقطعان ،وقيل : نضاختان بالماء، لأنه المعروف بالعيون ، إذ كانت عيون ماء.ألا إنه الإبداع هنا في وحدة الأجزاء، ودقة التصوير،وتناسق الإخراج، في مثل هذه اللمسات التي تستوعب دقائق الجزئيات ، فهذه ريشة ترسم نعيم الجنة ، وتعرض إطالة من التفصيلات ،وإطالة من النغمات لتلمس الحس ، وتوقظ الخيال ،والمنظر ثابت حتى لا تتحول عنه العين،ولا يتحول هو عن العين ، ومدة العرض هنا دائمة، إنه معرض بيان النعم الإلهية ،وهو مشهد يغري الخواطر، واللفظ أدل على النعمة إذ اختار التعبير النضخ دون النضح بالحاء المهملة ؛لأن معناه الرش، فجعلوا الحاء لرقتها للماء الخفيف،والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه ([91]) والنضخ أكثر من النضح ([92])إن اجتماع الضاد والخاء عند النطق مما يلفت الانتباه،ففيها جرس يرسم الصورة والمعنى في آن واحد ، فضلا عن صيغة المبالغة (فعّالتان)، والتي زادت من فعالية الجرس ، فهما عينان تفوران بشدة توجب رشاش الماء بحيث تروق لناظرها،وهي حال دائمة ثابتة، دلت عليها اسمية الكلمة، وإنها صورة تخلب العقل، وتنبه الغافل بجرسها ومعناها، وصورتها البيانية ، إذ شبههما بمن تغرغر عيناه بالدمع، بجامع الامتلاء من غير جري لنحس الحياة فيهما ويدور الخيال في إرهاف وتحفز ،ويدب النشاط في كل متكاسل ، كل ذلك ألمح إليه جرس الكلمة ،فالخيال يظل يتصور تلك الحركة الدائبة ،في غير توقف ولا انتهاء، لأنها من النعم الكبار .

وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من الاتساق : من نظم فصيح،إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط ، إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور،فهل تستطيع أن تصور كلمة أخرى هذه الدقة في

---

[88]) نظم الدرر – ج ٧– ص ٥٠٩

[89]) سورة الرحمن آية (٦٦)

[90]) لسان العرب – ج٢ – ص٦١٨

[91]) المزهر في علوم اللغة – للسيوطي – ص٤٢ – ت / علي البجاوي وآخرين

[92]) الكشاف – ج٤ –ص٤٥١

الوصف ؟ إننا لن نجد أدق منها في توضيح الكيفية،والكمية،و لن نلمح في غيرها صورة المضمون أمام العين كما هو ظاهر فيها ٠

ومن التصوير بالجرس كلمة {قدداً} في قوله تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾(٩٣) أي :كنا ذوي مذاهب مختلفة ،أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة(٩٤) وقيل : القدّ :القطع الموجب للتفرق العظيم ، مثل السيور التي تقطع الجلد ،وقدّ منه بحيث تصير كل فرقة على حدتها(٩٥) تقص هذه الكلمة حكاية الجن مع الرسول صلى الله عليه وسلم ،وفي استعراض منهم لأحوالهم وصلنا معهم إلى مقطع من القصة و الأحوال،يصور الجو الاجتماعي آنذاك ،ينفي اندماجهم ، ويثبت تنافرهم وليس أدل على ذلك من تعبيرهم بالقدد،التي استقلت وحدها بالصورة والمعنى،إن وضع اللفظة اللغوي هو الذي منحها هذه القدرة في تحديد الوصف ، ونهوضها برسم الصورة ، إذ بينت أن الانفصال بينهم على أعلى الوجوه ، بظل الكلمة التي تلقيه في الخيال ، حين يستدعي صورة مدلولها ، يستغرق مدى أطول في تصورها ذلك أن القدّ في اللغة : جعلوا القدّ طولا،والقط عرضاً ،لأن الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعاً له من الدال فجعلوه لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال الماطلة لما طال من الأثر وهو قطعه طولاً(٩٦) فدلت على طول وعمق هذا الاختلاف بجرسها ومعناها،وتأتي الصورة البيانية لتكمل الإطار الفني للتعبير،إذ عبروا عن مذاهبهم الكثيرة بالتشبيه البليغ(٩٧)،أي كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ووجه الشبه : التعدد والتباين، وتكتمل الصورة بالاستعارة ؛ إذ لما كان الانفصال قد يكون بأدنى شيئ بيّن التعبير أنهم على أعلى الوجوه فيه،فأطلق عليهم نفس المنقطع ووصفهم به ، فقال قدداً ، أي فرقاً متفرقة أهواؤها مثل القطع الموجب للتفرق العظيم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، بجامع التشتت والتمزق ،فخلع الحياة على الجماد ، وهذه الحياة ترتقي فتهب له الظواهر والانفعالات يتشارك بها مع الآدميين ، وتأخذ منه وتعطيه ٠

---

٩٣) سورة الجن آية (١١)

٩٤) الكشاف – ج ٤ – ص٦٢٩

٩٥) نظم الدرر –ج ٨ – ص١٩٠

٩٦) المزهر في علوم اللغة – ص٤٢

٩٧) التشبيه البليغ : التشبيه المحذوف الوجه والأداة ٠

ويؤكد التنكير الذي أفاد التكثير، النغمة الملفتة للوجدان ، فأفاد الجرس ما لم تفده الجمل والعبارات ،وأعطى من المضامين والإشارات ما تعجز عنه الكلمات،تتسرب عبر إطارها ،وهذا التخييل يتوارى بكل تأكيد ما لو قيل :طرائق مختلفة أو متفرقة حيث انفردت كلمة القدد بحركة التمزق والتقطع في الصوت والحركة،وهي صورة حين تجسم يصعب رسم كيفيتها ومناظرها ، ويظل الخيال مع كلمة القدد التي هي صورة حسية لتفرق الأهواء ،ولهذا الكلمة لم ترد إلا في هذا الموضع .

ومن التصوير بالجرس لفظة {إِلًّا} في قوله تعالى :﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (٩٨)

إن الأذن لتسمع كلمة الإل هنا ،وتتساءل : ما هو الإل ؟وإنما ترتب على جرسها هذا مطالبة بفهم معناها ، فلها كذلك ظلال بجانب ما لها من جرس ،لقد سار فيها النسق على النحو الذي عايشناه عبر هذه الدراسة ،حتى تنفرد الدقة في بناء النظم القرآني إن الكلمة تتكون من أربعة أحرف فقط : الألف واللام المشددة وألف أخيرة منونة لكن مبناها الضئيل هذا لا يعكس معناها،إن جرسها يلفتنا إليها ،حتى ندرك أنها تعني : القرابة والصلة(٩٩) ،لايرقبون هذا الحبل الممدود ،إن كان قد بقي فيه شيئ ينظر،ينعي عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الإطلاق(١٠٠) الإل :كل حالة ظاهرة من عهد حلف وقرابة ، تئل : تلمع ،فلا يمكن إنكاره ،وألّ الفرس أي أسرع وحقيقته : لمع ،وذلك استعارة في باب الإسراع،والآلة : الحربة اللامعة،وألّ بها ضرب(١٠١)،إن كلمة العهد أو القرابة ، تخاطب الذهن والوعي ،وتصل إليهما مجردة من ظلالها أما كلمة الإلّ فتخاطب الحس والوجدان ، من منافذ شتى : من الحواس بالتخييل، ومن الحس عن طريق الحواس،ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس،لا منفذها الوحيد،وزاد من الجرس في الأداء : التنكير في الكلمة ،والذي يفيد العموم ،لأنه في سياق النفي. إننا بعد استعراض معناها اللغوي علمنا أن تئل : تعني تلمع ، مما جانس بين اللغة والجرس، فللتعبير ظلال حوله ، فليس يعني أي عهد ولا أي قرابة ، إنما هو عهد لا يمكن إنكاره ،أو التنصل منه ،ومع ذلك خانوه ونقضوه وذلك أشد في تبكيتهم ، وأشد في ذمهم ، وأوضح في شرح نفسياتهم ودواخلهم ، وكشف طبائعهم

---

٩٨) سورة التوبة (١٠)

٩٩) نظم الدرر –ج ٣ – ص٢٧٦

١٠٠) روح المعاني –ج ١٠ – ص٥٧

١٠١) المفردات – ص٢٠

، وهكذا ظلال التعبير تزيد في مساحته النفسية إذا صح هذاالتعبير ،ولهذا لم ترد الكلمة إلا مرتين في موضع خاص بنقض العهد ، في سورة التوبة ، ولم تتكرر في أي موضع آخر للدلالة على خصوصيتها في موضعها الواردة فيه ،

ولذلك جعلهم التعبير الجامعين للأوصاف الذميمة ،المتجاوزين للحد في الشر والظلم ونقض العهد بقوله " وأولئك هم المعتدون "([102]) قصر التعبير عليهم وحدهم الاعتداء مع مشاركة غيرهم لهم في هذه الصفة،وهو قصر إضافي تحقيقي([103]) مما يشعر باختصاص عملهم هذا للذم والسوء دون غيره،كما عبر عنهم باسم الإشارة للبعيد ،إشارة إلى بعدهم عن كل خير ،كناية عن موصوف لأنهم اليهود ،إذ قيل : الأول عام في الناقضين ،وهذا خاص باليهود والأعراب([104]) ،

وهكذا كان لهذه الطريقة فضلها في أداء الدعوة لكل عقيدة ، ولكننا ننظر إليها من الوجهة الفنية البحتة، وإن لها من هذه الوجهة لشأناً،في تغذية الخيال بالصور لتحقيق غرض لفت الأنظار لما هو يثار من معان وأحداث ،حتى ندرك الفروق اللغوية بين الكلمات ودقائقها التي لا تنقطع ، والخصائص التي تميز الجرس ،

ومن التصوير بالجرس كلمة {لنسفعاً} في قوله تعالى :﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾([105]) السفع :الأخذ بسفعة الفرس أي سواد ناصيته ،وبه سفعة:أي غضب اعتباراً بما يعلو من اللون الدخاني وجه من اشتد به الغضب([106]) أي لنجرّنه بها إلى النار أو لنسوّدن وجهه([107]) والسفع :القبض على الشئ ،وجذبه بشدة ،

والمعنى :والله لنأخذن و نقبضن قبضاً وأخذاً بشدة ، وعنف مع الجرّ، والاجتذاب واللطم ، والدفع ، والغيظ ، أخذ من يعضّ مأخوذه ،ويذّله ،ويسود وجهه ويقذره([108]) لقد رسمت هذه الكلمة أشهر وسيلة إهانة في التعذيب،إشارة إلى أن هذا المعذب أقل من أن يحتاج فيه إلى فعل شديد ، بل أقل نفحة من العذاب تكفي في إهلاكه ، وهنا الإهانة هي أدق وسيلة وأنجعها مع هذا

---

[102]) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي – ج٥ –ص١٦ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢ ٢٠٠١م

[103]) القصر الإضافي:ما يكون النفي موجها إلى بعض ما عدا المقصور عليه ،

[104]) بتصرف روح المعاني – ج ١٠ – ص٥٧

[105]) سورة العلق (١٥)

[106]) المفردات ص٢٣٤

[107]) القاموس المحيط – ج ٢ – ص٢٨٥

[108]) نظم الدرر – ج ٨ – ص٤٨٧

الشخص ، وإذا أردنا أن نعرف قيمة هذه اللفظة في موضعها فعلينا استبدالها بكلمة أخرى من اللطم أو الأخذ أو الدفع أو الجر أو نحو ذلك ، حتى ندرك خاصيتها في موضعها ، لقد رسمت صورة الموضوع بالجرس والظل معاً ،جرس الكلمة مع النون المشددة ، فجسمت الحركة الجثمانية أدق تجسيم ، مصحوباً بالنغمة الطويلة الممدودة ، وصورت الحركة المتوقعة في هذه الحالة ، فالخيال يظل عاكفاً على تمثل هذه الحركة ، التي لا تتم ولا تقف ما تابعها الخيال ؛ تنفرد بث الصوت مع الحركة، فينتقل العذاب من معنى مجرد إلى شيئ ذي لون وصبغة وصوت،بإحالة المعنى جسماً،مع التخييل بحركة هذا الجسم ، فهذا المشهد صاخب،حافل بالحركة المتكررة – الفعل المضارع – ثم يأتي تفصيل الحركة : بالناصية ،ليظل الخيال يكرر هذه الصورة من أولى حلقاتها إلى أخيرتها ليبدأ العرض من جديد ، إن هذه الآية نزلت في أبي جهل عندما نهى عن عبادة الله تعالى ،وأمر بعبادة اللات ([109]) واكتفى التصوير بالناصية،لأنها أشرف ما في الإنسان والعرب لا تأنف من شيئ أنفتهم من أخذ الناصية ، وإذا انتهكت حرمة الأشرف فما بالك بغيره ! فكان هذا أبلغ في الإهانة ،والمذلة والتحقير، وتحطم الكبرياء ، والقوة، والجاه ،كل هذه المضامين احتوتها وبثتها الكلمة،فكان التعبير بها مظهراً من مظاهر الاستعراض اللغوي ، لتؤدي إلى التقابل التخييلي بين حال وحال ،وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها . وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصور يكون ذلك فناً من التناسق الرفيع ،واختياره في مكانه يحسب بلا شك في بلاغة التعبير،ولهذا لم تتكرر الكلمة في أي موضع آخر،حتى تدل على خصوصيتها في موضعها وتلك هي السمة العامة في التعبير بالجرس :اختصاص الكلمة بموضعها التي وردت فيه،لخصوصية في المعنى تناسبه .

ومن التعبير بالجرس كلمة {عتل} في قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ ([110])عتل يعتل عتلا : إذا كان سريعاً إلى الشر،والعتلة :حديـــدة كأنها رأس فأس عريضة في أسفلها خشبة يحفر بها الأرض ،وليست بمعققة كالفأس، ولكنها مستقيمة([111])عتل : الغليظ الجافي ، من عتله ،إذا قاده بعنف وغلظة ،جعل جفاءه أشد معايبه لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه،واجترأ على كل معصية([112])

---

[109]) الكشاف – ج ٤ – ص٧٨٤

[110]) سورة القلم آية ( )

[111]) لسان العرب – ج١١ – ص٤٢٣

[112]) الكشاف – ج ٤ – ص٥٩٢

وقيل : الأكول الشروب الغشوم الظلوم([113]) و قيل : الشديد الخصومة بالباطل ،وقيل : الفاحش اللئيم وقيل : هو الذي يعتل الناس أي يجرهم إلى حبس أو عذاب بعنف وغلظة([114]) إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة ،في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ،وذلك بأوسع مدلول ، وأدق تعبير مع التناسق العجيب بين العبارة والمدلول.ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار،وصوتاً منكراً كصوت حمار،وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل،ومرارة كمرارة الحنظل،هي على ذلك تجري مجرى النغمات و الطعوم،وكلمة عتل أصدق دليل على ذلك ، ففرق بين تعبير غليظ وجافي؛ وبين تعبيرعتل ،فترى الدقة الواضحة،والتحديد الكامل للفظ ،والإتيان به في خاص معناه في التعبير القرآني ،فآثر لفظة عتل بجرسها حتى تصل إلى الأذن ملحة لها جرس وظل كامن في نسيجها ،يشنع حال الموصوف بها ، وأنه قد بلغ الغاية فيها ، ونبهت إلى ثباته في تلك المخازي،الموجبة لاستغراق أوقاته وأحواله بها ، "إن الكلمة في القرآن أشبه بالعضو في جسم الإنسان،هو يؤدي وظيفته عندما يكون في موضعه فإذا زايله إلى موضع آخر تغير حال الجسم واختل توازنه "([115]) ، فكذلك الكلمة في القرآن إذا حاولنا تغييرها أو تبديلها ؛ كنا كأننا غيّرنا الكلام ،وأخرجناه عن صفة الفصاحة وأطفأنا رواءه ،وأنضبنا ماءه.

وتكتمل الصياغة الفنية والأسلوبية بالتصوير البياني المتمثل في التشبيه البليغ :أي أكول شديد الخصومة، جاف غليظ في خلْقه وخُلقه ، ثقيل كأنه قطعة جبل قد انقطع عن سائره،لا ينجّر إلى خير،إلا بعسر و صعوبة و عنف([116]) أو هو يشبه تلك الآلة التي هي مثل الفأس ، في حدها وعدم انصياعها ، والغرض من التشبيه هنا بيان حال المشبه ،فهو في غاية ما يكون من يبس الطباع والمشاعر، وعدم الطواعية في الخير.

ثم زاده التعبير قبحاً بقوله : بعد ذلك زنيم ،فبعد هنا ك (ثم) تدل على التفاوت الرتبي فتدل على

---

[113]) البحر المحيط – ج٨ – ص٣٠٤

[114]) روح المعاني – ج ٢٩ – ص٢٧

[115]) بتصرف : من أسرار التعبير في القرآن : صفاء الكلمة – ص ٢٤٠ – د/ عبد الفتاح لاشين – دار المريخ الرياض .

[116]) نظم الدرر – ج ٨ – ص ١٠٢

أن ما بعد أعظم في القبح([117])، وهي استعارة تبعية في الحرف ، مجازاً في نزول رتبة ما أضيف إليه (بعد)عن رتبة ما ذكر قبله،وهو تشبيه أيضاً غرضه تقبيح المشبه، زنيم : من الزمنة بفتحات ،وهي ما يتدلى من الجلد في خلق المعز ، والفلقة تشق أذنه فتترك معلقة ، أي صارت له علامة سوء وشر قبيح ، ولأمه بيّنة ومعرفة يعرف بها ؛ كما تعرف الشاة بزنمتها ٠٠٠ولا يخلو التعبير من إشارة إلى أنه دعيّ وليس بثابت النسب على من ينتسب ، ليكون منقطعاً عن كل خير ، ومن كان ينسب إليهم ([118])٠

وإذا علمنا أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ؛ تفهمنا سر صوتها العالي النبرة فهو صوت يوازي صوت معارضته للدين ومحاربته له،ومقدار من الإهانة يتواصل مع ما كان يقوم به ،وهو أسلوب من المناظرة دائماً ينتهي بعرض الإعجاز القرآني وهو أسلوب ينبه الأفهام حتى لا تضل المعاني ، وتتوه المقاصد ، أنه في بعض مقتضيات الأحوال تعلو النبرة في الصوت والكلمات حسب الدواعي والأغراض ٠ هذا وقد وردت الكلمة في موضعين من القرآن : أولهما : هذا الموضع،والثاني قوله تعالى" خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم "([119]) ، وبالمطالعة وجدنا الموضعين قد وردا في شخص الوليد بن المغيرة ، إذاً الكلمة خاصة الورود بشخص معين ، وخاصة الإشارات والاستعراض للعين والخيال ٠

ومن التصوير بالجرس كلمة {أركسهم} في قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾([120]) الركس : قلب الشيئ على رأسه ،وردّ أوله إلى آخره،يقال : أركسته فركس وارتكس في أمره([121]) الذي كان قد نجا منه ،أي : ردّ ([122]) والركس بالكسر : الرجس والركس أيضاً الكثير من الناس٠والمفسرون اختلفوا في معناه إلى خمسة تأويلات : أحدها : معناه ردهم ، والثاني : أوقعهم ، والثالث :أهلكهم ، والرابع : أضلهم ، و الخامس : نكسهم ([123]) ولعلها معان ترجع إلى أصل واحد ، و الإركاس : الرجوع إلى الحالة المكروهة ، كما قال في الروثة أنها ركس ، أي رجعت

---

[117]) روح المعاني – ج ٢٩ – ص٢٧

[118]) نظم الدرر – ج ٨ – ص ١٠٢

[119]) سورة الدخان آية (٤٧)

[120]) سورة النساء آية (٨٨)

[121]) المفردات –ص ٢٠٢

[122]) مقاييس اللغة – ج ٢ – ص٣٥٩ ، والصحاح – ج ٣ – ص ٩٣٦

[123]) النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي – ج ١– ص٥١٤ دار الكتب العلمية – بيروت

إلى حالة مكروهة([124]) وقيل : قلبوا منكوسين فيها ([125])لأن من يرمى منكساً في هوة قلما يخلص منها .

وهكذا تضمنت الكلمة مضامين كثيرة ، فأنحت إلى طبقات من المعاني تجدها كلها في الطبقة العليا من البلاغة ، مما جعل لها في النفوس موقعاً ،ولو جاء التعبير في القرآن : ردهم ، لكان المعنى صحيحاً ، لكن القرآن اختار كلمة أركسهم دون ردهم لأن الإركاس يوحي بمعان ، ويشير إلى إيحاءات ، تفتقدها الكلمة المرادفة ، وأساس هذا هو جرسها الملفت للأسماع أولاً ثم للأفهام ثانياً، وصوت الحروف ، ونهوضها بإبراز مقصودها ، وشد بعضها إلى بعض ، حتى تبرز هؤلاء المنافقين في صورة لفظية موضحة للأحوال : فهم قد ردّوا إلى الكفر بعد الإيمان أولا، ووقعوا ثانياً في الضلال ، ونكسوا رؤسهم حسرة وخيبة ثالثاً ، وهلكوا رابعاً ، وحينئذ يتصورهم السامع في كل هذه الصور،أو في صورة مناسبة منها للسياق. ودلت اللفظة على أنهم أعرق في النفاق،وأردى وأدنى وأعدى من الذين قبلهم ،فأفادت بجرسها وظلها ما لن تفيده أي من مرادفاتها ،وهو مشهد يعرض تفاصيل الحدث ،ويترك للنفس مدة كافية للتأمل والتأثر.

وظاهرة أخرى :هي تجسيم الرجوع في صورة حسية ، ليصل مداها بعيداً ، في التعبير البياني بالاستعارة ،إذ شبههم بشد الدابة إلى ما تربط إليه ([126]) ؛ أو صورة المقلوب على رأسه مبالغة في الإهانة والتحقير.ولهذا تجد الكلمة لم ترد إلا في موضعين فقط في سورة واحدة:أولهما هذا الموضع،وثانيهما قوله تعالى" كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها "([127]) مما يعني أن الكلمة خاصة الورود بالمنافقين فهي خاصة الدلالة لخصوصية الحدث .

ومن التصوير بالجرس كلمة {ضيزى} في قوله تعالى:﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾([128]) ضيزى :فُعْلى ،وكسرت الضاد من أجل الياء الساكنة ،وهي من ضزته حقه أضيزه إذا أنقصته([129]) وأصل الضيز :الاعوجاج والميل([130])والعرب تقول ضزته حقه أضيزه بمعنى منعته منه وظلمته([131]) وقيل : جائرة

---

[124]) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي – ج ١ – ص٣٩٨ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت

[125]) نظم الدرر – ج٢ – ص ٢٩

[126]) المنجد في اللغة والأدب –دار الشروق بيروت – ص١٣٢

[127]) سورة النساء آية (٩١)

[128]) سورة النجم آية (٢٢)

[129]) لسان العرب – ج ٤ – ص٣٦٣

[130]) المخصص – ج٤ – ص٤٠٦

، من ضازه يضيزه إذا ضامه ([132]) تسمع الأذن اللفظة فتقف عندها ، لتدرك بعد تأمل أنها يراد منها أزيد من دلالة ،فهم يضيفون إلى جهلهم وغفلتهم،مراحل منهما تتعدى ما سواهم من البشر،وتدعك ترسم بخيالك الصورة ،وتحدد رقعتها وأجزائها ،فتعطيك معنى أوضح وآكد للجور والميل عن الحق ،فهي تصور حركة الظلم تصم الأذان من شدتها ،فهي قسمة جائرة ناقصة ظالمة فيما يحسن للحق ،عرجاء غير معتدلة،حيث خصصوا الله ما أوصلتهم الكراهة له إلى دفنه حياً(ألكم الذكر وله الأنثى):أي جعلتم البنات لله والبنين لكم([133])فلهم النوع المستحسن المحبوب ، والمذموم المستثقل هو لله بزعمهم.وعلل بن الأثير في سبب اختيارها هنا بذاتها أنها جاءت على الحرف المسجوع الذي جاءت عليه السورة كلها وغيرها لا يسد مسدها في مكانها ، وإذا جئنا بلفظة في معناها لصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام ([134]).لكن الرافعي أضاف إلى ما أدركه ابن الأثير بُعْداً جديداً ،يتميز بإدراكه للسر البلاغي الراجع إلى المعنى واللفظ معاً ،لا الحلية اللفظية فقط كما قال ابن الأثير،أرجعه إلى أن غرابة اللفظ أشد الأشياء ملائمة لغرابة القسمة التي أنكرها " وكان هذا التصوير أقوى في البلاغة،لتمكن اللفظة الغريبة من موضعها الواردة فيه " ([135]) .

ألا ترى أن السمع يركن إلى الألفاظ المألوفة، فلا يتدبر معانيها من كثرة ألفتها ،لكن عندما تطرق أذنه كلمة غير مألوفة يقف متأملا لها طويلا ، ولذلك يختل التعبير إذا وضعنا كلمة جائرة أو ناقصة أو عوجاء موضعها،لأن الشدة في الإنكار تزول بزوال الجرس الصوتي،الضاد والزاي نطقهما يميز اللفظة عن التي تقاربها في بعض المعنى أو تشترك معها في بعض الدلالة،ومما يدل على أن المقصود منها لن يتحقق بغيرها أنها لم تردفي موضع آخر من كتاب الله،دلالة على خصوصيتها في موضعها حصراً للمعنى والحدث .

ويؤكد ذلك اسم الإشارة الدال على البعد أيضاً ،كما تتكامل النغمة الصوتية بالتنوين الكائن في (إذاً) بل والإسناد العقلي([136]) للقسمة، زاد من استقباح سوء فعلهم وحكمهم،فليست هي الجائرة

---

[131]) المحرر الوجيز – ج ٥ – ١٨٢

[132]) الكشاف – ج ٤ – ص٤٢٤

[133]) نظم الدرر – ٧ – ص ٣٢٣

[134]) المثل السائر – ج ١ – ٢٢٩ –لابن الأثير –ت / بدوي طبانة القاهرة

[135]) ينظر إعجاز القرآن للرافعي – ص ٢٦ ١ – القاهرة ط ١٩٦٩م – دار المعارف

[136]) الإسناد العقلي : إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول .

إنما الجائر هو القاسم لها،أي الفاعل،لأنها مقسومة فزاد المجاز العقلي العبارة إنكاراً على إنكار،فهي مشاهدة للعين في الظاهر،وللنفس في الضمير ،والقرآن يوجه إليها السمع والخيال ،فإذا كانت القسمة هذه حالها ،فما بالنا بالفاعل لها ! لفظة ضيزى لا تزال تبدو عجيبة كلما قرأناها ؛ حتى ندرك مدى المخالفة الكائنة من هؤلاء الناس،فهي وسم لهم بالجور زيادة على الكفر،وهي صورة تلح على الحس فلا يستطيع أن يتحول عنها ،وهي من أعجب الحوارات العقلية التي تخاطب الحس الواعي بأسلوب وبرهان قياسي ،إذ كيف يرضون لله مالا يرضون لأنفسهم ؟ وهذا في علم البديع يعرف بالمذهب الكلامي .[١٣٧]

ومن التصوير بالصوت كلمة {حسيس} في قوله تعالى﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُو ن﴾(١٣٨)

حسّ: الحاء والسين أصلان :فالأول غلبة الشيئ بقتل أو غيره،والثاني:حكاية صوت عند توجع وشبهه(١٣٩) وحس كلمة تقال عند الألم المفاجئ ،والحسيس: الحس(١٤٠) والفرق بين حسّ وبين أدرك :أن الصفة بحس مضمنة بالحاسة،والصفة تدرك مطلقة والحاسة اسم لما يقع به إدراك شيئ مخصوص ،والإدراك لا يقتضي حاسة(١٤١) والحسيس : الصوت يحس(١٤٢) أي الصوت الذي يسمع من بعيد .

فالخيال هنا يظل يستعرض المشهد المروع،ويكرر العملية المفزعة،إنه صوت جهنم وهو صوت عنيف صاخب ،حافل بالحركة البالغة والمتكررة،فكيف بما دونه !الأن الحس مطلق الصوت ،أو الخفي منه ،فإذا زادت حروفه زاد معناه ،فلا يفوتنا ما في جرسها من تصوير لمدلولها، وكأنما صوتها قذائف ، وحركتها حركة شخص يتألم ويتأوه ويتلوى، فيرسم هذه الصورة العجيبة للجهد في الصوت والحركة، إن الخيال ليكاد يجسم هذا الصوت القلق المتحرك ،المضطرب ، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد مما يبلغ المرئي،فيتخيل مقدار حركتها،فيزداد تصوره ورسمه لتتابع هذا الكائن ففيها تخييل

---

١٣٧) المذهب الكلامي :أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل العلم .

١٣٨) سورة الأنبياء آية (١٠٢)

١٣٩) مقاييس اللغة – ج ٢– ص٦

١٤٠) المعجم الوسيط – ج١– ص١٧٣

١٤١) الفروق في اللغة – ص ١٢٨

١٤٢) الكشاف – ج ٣ – ص ١٣٧

لمنظرها، فإذا أدرك المتلقي مقدار هذا الشيئ ، وارتعب بمقداره ، زال عنه رعبه وروعه عندما يدرك زوال هذا الكائن عن أهل الجنة ،وبعدهم وسلامتهم من هذا الفزع ،فهم عنها مبعدون بعداً شديداً،فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمهم،كناية عن الأمن التام ،والراحة النفسية البالغة ، كل ذلك أداه لفظ واحد بجرسه وظله ، ولو أن اللفظ نسبياً قليل ،والمدة قصيرة نسبياً،لكن يخيل إليك أنها طويلة طويلة في النغمات حتى ليخيل للمرء أنها لن تزول ، وبذلك يتقرر في النفس الغرض المساق له الكلام وفي هذا ما يبرهن على أن التعبير في القرآن يهمه في الدرجة الأولى أداء المعنى تاماً ،ولاشك أن كلمة حسيسها في الآية أدل على تشنيع الصوت مما لو قيل :صوتها أو حركتها فالخيال مع الحسيس يظل عاكفاً على تمثل هذا الصوت الذي لا يقف ولا يتخلف ما تابعه الخيال ،فنهضت اللفظة برسم الحركة والصوت معاً.ولهذا لم ترد كلمة حسيس إلا في هذا الموضع فقط ،في حين عبر عنها في سياق حديث الوصف بالشهيق،والتغيظ ،والزفير،وتدعو من أدبر،كل هذا عند وصف حال أهل النار وكأن التعبير اختار أكثر الألفاظ رقة في الوصف مع المؤمنين (الحسيس) مجرد حسيس فقط ،لا أكثر من ذلك ،حتى لا يكون للمؤمنين نصيب من أي هلع.

ومن التصوير بالجرس كلمة {أغطش} في قوله تعالى : ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾(١٤٣) الغطش في العين شبه العمى ، غطش الليل غطشاً : أظلم،وفلان غطشاً وغطشاناً :مشى رويداً من مرض بعينه أو كبر،وغطشى وغطشاء وغطشة والجمع :غطش(١٤٤) وغطش الليل من باب ضرب ،وفلاة غطشى لا يهتدى لها (١٤٥) إن الكلمة تعرض مشهداً من مشاهد الطبيعة ،وهو لوحة معروضة في كل حين ،ولكننا نقرأها فنلتفت إليها كأنما تعرض أول مرة،وتلك طريقة القرآن في كل ما يوجه إليه النظر، إنه مشهد ذو منظرين : منظرالليل الساكن الدامس،ومنظر النهار المتحرك المضيئ لوحة بعد لوحة، لينتقل الذهن منها بعد استعراضها للعين والخيال إلى التأثر والتفكر ليتصور به البعث في كل يوم وليلة مرتين ، و لما كان ذلك يدل على قدرة الله على البعث،لأنه إيجاد ما هو أشد من خلق الآدمي من عدم ،وعبر هذه اللوحة كانت لفظة أغطش بجرسها وحركتها ، الملفتة بنغمتها، لتحدث انقلاباً تأملياً في الذهن ،حيث إن فيها كفاية لمعنى الإظلام ،وأكثر منه إحاطة بالمعنى المقصود ،.ومن أجل ذلك آثر الكلمة على ما سواها، لما تعنيه من الإتيان رويداً،ولمعنى شدة

---

١٤٣) سورة النازعات آية (٢٩)

١٤٤) المعجم الوسيط – ج ٢ – ص ٦٥٦

١٤٥) الكشاف – ج ٤ – ص ٦٩٧

الظلمة فيها ، ولولا هذه اللفظة ما وضح تمام المراد ،ولا فهم حقيقة المعنى المقصود ،أي : أظلم ليلها إظلاماً لا يهتدي معه إلى ما كان حال الضياء،بغياب الشمس،فأخفى ضياءها بامتداد ظل الأرض على كل ما كانت الشمس ظهرت عليه(١٤٦) وقد يظن البعض أن الكلمة مساوية من حيث الدلالة اللغوية لكلمة أظلم ،ولكن أغطش تمتاز بدلالة أخرى من وراء اللغة ،فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت ،وعمّ فيه الركود ،وبدت في أنحائه مظاهر الوحشة،ولا تفيد هذا المعنى كلمة أظلم ، إذ تعبر عن السواد الحالك ليس غير،كما أنها تمثل جزء من أجزاء الإعجاز العلمي ، إذ تشير إلى شدة ظلمة ليل السماء،وهي الحقيقة التي لم يكتشفها العلماء إلا حديثاً في عصر الفضاء ، كما كانت صورة حية متحركة ،إذ تتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات تذهب طولا وعرضا،والحروف مجتمعة :الغين والطاء والشين،تشبه الموجة في ارتفاعها لقمتها وانبساطها إلى نهايتها في انحسار النهار ومدّ الليل، لتفسر سر ذلك التحول ، فالليل شديد السواد،والنهار ساطع النور،وهذه الأجزاء موزعة على الرقعة توزيعاً متناسقاً متقابلة في اللوحة ذلك التقابل الدقيق ، يلفها الظلام والنور، والجو قائم على أساس هذه الوحدة في الأجزاء والألوان ، وليست هذه الدقة بلا هدف ، وليس الهدف حلية عابرة ، من أجل ذلك لم ترد الكلمة إلا في هذا الموضع خاصة – على كثرة ورود مشاهد الطبيعة في القرآن– اكتفاء بها في موضعها تستوعب دقائق الوصف.فكانت الصورة البيانية المرتبطة بالمعنى والدلالة كما كان الجرس المثير لخصائص لم يكن غيره يشير إليها .

ومن التصوير بالجرس لفظة {قمطرير}في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾(١٤٧)

القمطر و القمطرة : شبه سفط يسف من قصب ، وشر قمطر و قماطر و مقمطر و اقمطر عليه الشيء : تزاحم ، و اقمطر للشر: تهيأ ،و قماطر وقمطرير : مقبض ما بين العينين لشدته ،وقيل :إذا كان شديداً غليظاً، وشر قمطرير : شديد(١٤٨) وقيل : طويل ،مجتمع فيه الشر(١٤٩) التف شره بعضه ببعض.

---

١٤٦) نظم الدرر – ج ٨ – ص ٣١٨

١٤٧) سورة الإنسان آية (١٠)

١٤٨) لسان العرب – ج ٥ – ص ١١٦

١٤٩) نظم الدرر – ج ٨ – ص ٢٦٩

تسمع الأذن الكلمة فتحس الرهبة والوجل، والهيمنة والغموض ،ولأن فيها خفاء لعدم ألفة الكلمة مع فصاحتها ،ومرد ذلك خصائص غامضة في جرس الحروف المتنوع في التكوين اللفظي مما ساعد في إكمال واتساق جو المشهد الرهيب العميق ، ولعل ذلك يفسر الاتزان الخارجي في النغمة لا الروح الداخلي فيها ، فلهذا الجرس وظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض. إن وزن الكلمة المبالغ في صيغتها يعطي شدة تناسب شدة وهول يوم القيامة ، الشديد الصعب في كل شيء ، تمشياً مع تجسيم الصورة ، فيصور المعنوي المجرد جسماً محسوساً ، و يخيل حركة لهذا الجسم من إشعاع التعبير، فهو يوم يشبه الرجل الشرس الطباع ، الغليظ الشديد،المقبض ما بين العينين المتهيأ والجامع للشر ، بجامع التفاف شره وتجمعه ، على سبيل الاستعارة المكنية ، وإسناده لليوم استعارة تخييلية قرينة المكنية ، وهذا من قبيل المجاز العقلي علاقته الزمانية لتأكيد خصوصية هذا اليوم فهو يوم ليس كسائر الأيام ، ولهذا كان اختيار الكلمة دون ما عداها مما يؤدي معناها مثل كلمة الشديد،أو كلمة الغليظ ، أو نحو ذلك ، لأن جرسها استعمل في خاص معناه ، كما اجتمع فيه التخييل والتجسيم ولذلك الكلمة لم ترد إلا في هذا الموضع فقط ، لتدل على خصوصيتها في موقعها حيث نشعر أنها تبعث في الخيال صورة المعنى محسوساً مجسماً دون الرجوع إلى المعاجم والبحث في كتب اللغة ، مما جعل لها في النفس موقعاً ،وهل تستطيع كلمة غيرها تصوير شدة يوم القيامة ، وتمدد في الآفاق معناها ؟ حتى لكأنك تشم منها رائحة المعنى المطلوب ، وتلمح فيها صورة المضمون أمام العين ، كما أن المبالغة في الوزن حصّلت لها من الغرابة ما ناسب المعنى المراد ، فتضمنت الكلمة معنى التهيأ ، ومعنى الشدة ،ومعنى التراكم ،وكان استعمالها من البلاغة بمكان،إذ ناسبت تخصيص المعاني المرادة ، وكانت صعبة النطق صعوبة الأهوال المرئية في هذا اليوم ،وتجهد الصوت إجهاد الجسم الكائن فيه،ولهذا كانت فريدة كاليوم الفريد ، لا يكاد ذهن مستقيم يفطن إلى مثلها أو شبهها ، وإذا سقطت هذه الكلمة من الكلام عزّ الإتيان بمدلولها.

والصورة الثانية من تصوير الجرس : هي صورة للنغمة ليست كسابقتها ، من تصوير الحركة والصوت ، أو أحدهما ، إنما يرجع فيها الجرس إلى صيغة المبالغة في الكلمة بمضاعفة الحرف فيها ، تثبيتاً للقاعدة القائلة بأن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني.

ونبدأها بكلمة {اثّاقلتم} في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾[150]
اثاقل : تثاقل، واستثقل

[150]) سورة التوبة آية (٣٨)

الشيئ ، صار ثقيلا ، وأثقلت الحامل : استبان حملها فهي مثقل([151]) والثقيل : يستعمل في الأجسام المرجحة إلى أسفل ، كالحجر والمدر([152]) وتثاقل القوم :إذا استنهضوا لنجدة فلم ينهضوا([153]) وثقل إلى الأرض : أخلد إليها واطمأن فيها ،والتثاقل : التباطؤ([154]) والمعنى : تباطأتم وتقاعستم ([155]).تسمع الأذن كلمة اثاقلتم : فيتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل، يرفعه الرافعون في جهد ،فيسقط من أيديهم في ثقل ،" إن في الكلمة طنّاً على الأقل من الأثقال! ولو أنك قلت : تثاقلتم ، لخف الجرس ، ولضاع الأثر المنشود ، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ ،واستقل برسمها "([156]) إن هذه الآية نزلت عتاباً على من تخلف عن رسول الله في غزوة تبوك([157])فناسب تخلفهم عن الغزوة هذه الكلمة الثقيلة الوزن إذ تجسم الحالة التي تمنعهم من الاستجابة للأمر،برسم التباطؤ فيه ، بصورة المائل إلى الأرض،المحب لبرد ظلالها وطيب هوائها ،الخائف من مفارقة ذلك إلى ما هو عكسه ، كناية عن سفول الهمم ،وضعف العزائم ،ولذلك قال اثاقلتم ،ولم يقل تباطأتم لأن اثاقلتم ضمن معنى الميل والإخلاد فعدي بإلى،والمعنى : ملْتم إلى الدنيا وشهواتها وكأن هنالك ميزاناً ترجحت فيه كفة على أخرى ، وهذا أدق في وصف الحالة التي هم عليها ،فهم ليسوا رافضين للأمر، بل هم في حالة صراع نفسي بين موت وحياة، بين الدنيا والآخرة ، فحسم الله لهم هذا الصراع ، بقوله : أرضيتم بالحياة الدنيا ،حتى يرجع المؤمن إلى قوة إيمانه ،وثبات عقيدته فلا يركن إلى الدنيا أبداً ،فأكملت الكلمة معالم الصورة الحسية ، فترتسم صورة الميل في جرس الكلمة خاصة ، وإن اللسان ليكاد يتعثر،وهو يتخبط فيها حتى يصل ببطء إلى نهايتها ! ويصور جرسها الشدّ و التجاذب النفسي،فأظهرت كل خفاياهم بجرسها وأبرزت جوالإكراه،بإدماج الكارهين مع ما يكرهون ،ويشدون إليه وهم نافرون ! مما انتهى بالعبارة إلى تناسق المعاني والأغراض ،برسم صورة شاخصة للعين ،استقل فيها لفظ واحد – لا عبارة كاملة – برسم هذه الصورة ، فكان ذلك أجمل

---

[151]) المعجم الوسيط – ج ١ – ص ٩٨

[152]) المفردات – ص٨٠

[153]) المخصص –ج ٣ – ص ٣٣٥ لأبي الحسن الأنداسي (ابن سيده) ط أولى ت خليل إبراهيم دار إحياء التراث بيروت ١٤١٧ه

[154]) لسان العرب – ج ١١ – ص٨٥

[155]) الكشاف – ج ٢ – ص٢٥٨

[156]) التصوير الفني ص ٩١

[157]) الجواهر الحسان – ج ٢– ص ١٣٠

وأبدع وسائل القرآن في التعبير : التصوير بالجرس. الوصف يوصف به الإنسان في مختلف العصور والأزمان- ليس حصراً للحدث ، بل اكتفاء بعرضه مرة واحدة ، إشارة إلى أنه ما ينبغي أن يصدر مرة أخرى .

ومن هذا الباب كلمتا{زكاها}و{دساها} في قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ([158]) زكى ولهذا تجد الكلمة لم ترد في أي موضع آخر بهذه الصيغة – وإن كان يزكو،و زكّى وتزكى : نما وزاد ، وزكت التجارة ماله : أصلحته وزكى قلبه من الضغينة : طهره ([159]) – قد ورد في مواضع عدة في القرآن ودسّ يدس دسّاً: الدال والسين والحرف المعتل أصل واحد، يدل على خفاء وستر ، والأصل :دسسها، كأنه أخفاها،أو أغمضها ومنه الدسيس الذي يأتيك بالأخبار،وهو نقيض زكا ([160]) وقيل: الذي لا يهتدي لجهة ([161])

الكلمتان وردتا في سورة واحدة ، متتاليتين ، متقابلتين([162])، ليؤدي التقابل بينهما المفارقة الواضحة بين حال وحال،والتعبير القرآني يكثر من استخدامه في تنسيق صوره التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق،فصورة الطهارة والنماء تغاير صورة الخسة والخفاء وذلك نموذج من المقابلة النفسية بين الكافر والمؤمن،وللتقابل هنا قيمته الفنية بجانب القيمة الدينية ،إن الخيبة تعني فوت الطلب([163]) أي حرم مراده،ودسس مبالغة في دسّ بمعنى النقص والإخفاء بالفجور، وأفلح : أدرك البغية،وأصل الزكاة الزيادة والنماء والإعلاء بالتقوى ، هذه المقابلة تجعلنا ندرك البون الشاسع بين الحالين، و نتعايش النهاية لكل فريق ،ودعّم هذا الجرس اللفظي وبناء الكلمتين فيهما،مبالغة في التزكية والتصفية بالنسبة للمؤمن،ومبالغة في الفجور والنقص بالنسبة للكافر،ولذلك أكد سياق الكلام ب(قد) في الجملتين لإبراز الاعتناء بتحقيق المضمون،وكانت الصورة البيانية في الفلاح والخيبة،فكأن المؤمن بتخليه عما يدنسه غسل نفسه وطهرها؛بجامع التنقية فاستتبع ذلك حصوله على مراده ، وكأن الكافر بقهره نفسه وإجبارها على الكفر قد ضيّع وفوّت مطلوبه بإخفاء نفسه في التراب،بجامع

---

[158]) سورة الشمس آية (٩- ١٠)

[159]) لسان العرب – ج ٦- ص ٨٢

[160]) مقاييس اللغة – ج٢ – ص٢٢٦

[161]) المخصص – ج ٤ – ص ٥٠

[162]) المقابلة :أن يأتي المتكلم بلفظين متوافقين فأكثر ،ثم بأضدادهما أو غيرهما على الترتيب .

[163]) المفردات ص١٦٠

التدنيس . وكان إيجاز القصر في كلمة دسّ ،والتي تضمنت معان كثيرة :فللمفسرين فيها سبع تأويلات : أحدها أغواها ، وثانيها أهلكها ،وثالثها أشقاها ،ورابعها أخفاها ،وخامسها خسرها ،وسادسها جنبها الخير،وسابعها دسّ نفسه مع الصالحين وليس منهم([١٦٤]) وقد امتاز التعبير بائتلاف الجرس،وتضخيم حركات الصوت،فكانت ألفاظه أصفى جرساً وأدق وصفاً، ودلالة ،ولو قيل :طهرها بدلا من زكاها، وقيل أخفاها بدلا من دسّاها ؛ لفقد التعبير من أدائه لمعانيه ،ولهجر الدقة والبراعة في الوصف، إن القرآن ينتقي ألفاظه،ويختار كلماته لما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها ،فيستخدم كل كلمة بدقة بحيث تؤدي معناها المراد في إحكام شديد ،يكاد السامع يؤمن بأن هذا المكان خلقت له هذه الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تؤدي المعنى الذي أفادته أختها ، والأداء القرآني يمتاز هنا بالتعبير عن مدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض،وذلك بأوسع مدلول،وأدق تعبير،مع التناسق العجيب بين العبارة والمدلول. بل وأكمل الجرس اللفظي السجع([١٦٥])،أو توافق الفاصلة بين دساها وزكاها ، فتناسق الإيقاع الموسيقي مع الجو العام للآية ، وأدى وظيفة أساسية في البيان مما زاد من التنبيه والإصغاء.

ولهذا لم ترد الكلمة إلا في موضعين من كتاب الله : أولهما هذا الموضع ، والثاني قوله تعالى " أم يدسه في التراب "([١٦٦]) وفي الأول كانت : بمعنى إدخال الكفر تحت الإيمان، وفي الثاني بمعنى دفن الأنثى ، وفي الموضعين كانت أدق في تشنيع الفعل والتنفير منه بصوتها ونغمتها التي ضاعفت من دلالتها والالتفات إليها ، فاستعمال القرآن يورد إلى الذهن هذه المعاني ، فيتصورها السامع بارزة شاخصة .

ومن هذا الجرس كلمة {غشّاها} في قوله تعالى﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ "([١٦٧]) غشي غشية والغشاوة : ما يغطي به الشيئ،والغشيان والغاشية كل ما يغطي ويستر الشئ([١٦٨]) والغشاش أول الظلمة ،وغششه : بالغ في غشه([١٦٩]) والتشديد : مبالغة ([١٧٠])المؤتفكة: قرى قوم

---

[١٦٤]) النكت والعيون – ج ٦ – ص ٢٨٥

[١٦٥]) السجع أو الفاصلة : تواطؤ الفواصل في النثر على حرف واحد .

[١٦٦]) سورة النحل آية (٥٩)

[١٦٧]) سورة النجم آية (٥٣-٥٤)

[١٦٨]) المفردات – ص٣٦١

[١٦٩]) المعجم الوسيط -٢ – ٦٥٣

[١٧٠]) الكشاف – ج ٤ – ص٤٢٧

لوط ،انتفكت بأهلها :أي انقلبت بهم ،أهوى :أسقطها إلى الأرض بعد أن رفعها على جناح جبريل عليه السلام([171])بقدرة جعلتها من شدتها وعظمتها ، كأنها انقلبت بنفسها من غير قالب([172])٠ إن جرس كلمة غشّاها يحدث ظلالا للخيال يتصور معها الكيفية والطريقة التي تمّ بها طوي هذه القرى ،ويحدث فجوة في الذهن تترك الخيال أن يقيم قنطرة عندها و يعبرها، ليصل إلى أنه شئ تضيق عنه عبارات الوصف في اللغة ، وفيه من الإيحاءات ما لا غاية وراءه ، نفقدها لو استبدلنا الكلمة فقلنا : غطّاها ،لأن الغشاء يكون رقيقاً يبين ما تحته ،ويتوهم الرائي أنه لا شيئ ٠٠ والغطاء يقتضي ستر ما تحته ،والغشاء لا يقتضي ذلك ،والغطاء لا يكون إلا كثيفاً ملاصقاً([173]) وهكذا تعرض شيئاً يطالع الحواس ، ويواجه البديهة ،دون أن يثير ذلك الجدل الذهني ، الذي قد يعتمد على المهارة ، أكثر مما يعتمد على الحقيقة ، كأنها مشاهد جديدة تعرض في غموض لتجد في الحس والذهن ملاذاً حتى يختار طريقة التصوير والتخييل ، فكان العذاب لها بمنزلة الغشاء العظيم ، الذي لا يسع العقول وصفه ، وساعدت فاء التعقيب على إسراع المشهد والصورة المنبثة خلاله،كما كان الموصول الحرفي للتهويل والتفخيم ،فكأن المتكلم أراد أن يبين بالموصول والصلة وصف فاعل الفعل فلم يجد لبيانه أكثر من إعادة الفعل ، إذ لا يستطاع وصفه([174]) وكما كانت الكلمة موحية بجرسها ،كانت أيضاً موجزة، فالذي غشاها هو مطر من الحجارة المحماة وهي حجارة بركانية قذفت من فوهات كالآبار، كانت في بلادهم ولم تكن ملتهبة من قبل لقوله تعالى"وأمطرنا عليها حجارة من سجيل"([175])وفاضت عليها مياه غمرت بلادهم فأصبحت بحراً ميتاً٠كما كانت الكلمة كناية عن أن العذاب أحاط بهم من كل جانب،وهكذا كان تشديد الكلمة جرساً صوتياً ينبه السمع والحس ، ولما كان فعل قوم لوط من أسوأ الأفعال ، ناسبه تشديد الجزاء،ولما كان فعلهم ينبغي أن يكون خفاء لا علانية جعل جزائهم شيئا مهولا ، يذهب الخيال فيه كل مذهب ، ولذلك لم ترد كلمة غشي مضعفة الحرف إلا في موضعين : هذا الموضع ، وموضع الحديث عن العلاقة الجنسية بين الرجل

---

[171]) تفسير أبي السعود – ٨ – ص ١٦٥

[172]) نظم الدرر – ج ٧ – ص٣٣٥

[173]) الفروق – ص.٢٦٤

[174]) التحرير و التنوير – ج ٢٧ – ص ١٥٥

[175]) سورة هود آية (٨٢)

والمرأة في قوله تعالى "فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً " ([176]) وكأنها تشير إلى وضعية خاصة بقوم لوط ، كما هو الحال في الموضع الآخر، أي الجزاء من جنس العمل.

ومن الجرس الناشئ عن التضعيف كلمتا {الرجع والصدع} في قوله تعالى

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾([177]) الرجع : المطر ،وسمي رجعاً لرد الهواء ما تناوله من الماء ،والارتجاع :الاسترداد([178]) وقيل سمي المطر رجعاً لأنه يرجع مرة بعد مرة ([179])ورجع الصوت صداه ،والجمع :رجاع ورجعان([180]) والصدع ما يتصدع عنه الأرض وهو النبات ،والصدع : الشق ،وهو مصدر بمعنى المفعول أي المصدوع عنه ،وهو النبات.وعلى هذا تكون الكلمتين مجازا عقلياً،علاقته في الأول الفاعلية أي الراجع ،أو المفعولية بمعنى المرجوع ،والمصدوع في الثاني .

نقف عند جرس الكلمتين ودلالتهما ،فلم يأت التعبير:والسماء ذات المطر والأرض ذات النبات،ولنترك للسمع مساحة زمنية حتى يدرك بدون تمهل الفارق بين الدلالة في التعبيرين ،وبنظرة متفحصة ندرك ائتلاف اللفظ مع المعنى في الآية ،والانسجام الصوتي ، الذي أضاف بُعْداً للكلام ، إذ حول المعنى إلى صورة شاخصة حافلة بالحركة والحياة ،وتصوير المدلول، ومناسبتهما لمعنى البعث الذي تقرره السورة للإيماء إلى أنهما في أنفسهما من شواهد الله ، فكذلك البعث حياة معقبة بحياة وغير ذلك من الأمور الدال كل منها قطعاً على أن فاعل ذلك قادر على إعادة كل ما في كما كان من غير فرق أصلا.

بل إن التعبير بالرجع هنا أحد مؤكدات الإعجاز العلمي للقرآن، فلم يكن يعلم العرب قديماً أن المطر يتكون من مياه البحار عن طريق التبخر،وإن كان هناك اعتقاد بذلك وهو ما أشار إليه الزمخشري بقوله " وذلك أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض"([181])وقد جمع التعبير بين السماء والأرض في نظام ، وبين مشاهد الطبيعة ومشاهد

---

[176]) سورة الأعراف آية (١٨٩)

[177]) سورة الطارق آية (١١-١٢)

[178]) المفردات – ص ١٨٩

[179]) لسان العرب – ج٨- ص ١١٤

[180]) المعجم الوسيط –ج ١- ص ٣٣١

[181]) الكشاف – ج ٤ – ص ٧٣٧

الحياة في سياق ،حيث تتسع رقعة الصورة لهذا كله ، ومن الملاحظ هنا أن لوحة طبيعية قاعدتاها السماء والأرض لا يبرز فيها من الجماد شيئاً سوى المطر،ولا يبرز فيها من الأحياء شيئاً سوى النبات المسبب عن المطر، للإشارة إلى أن البعث عملية تشاهدها أعينهم في كل ما يحيط بهم من أحياء،فكما أن الرجل يسقي المرأة من مائه فتصدع عن الولد، فكذلك السماء تسقي الأرض فتتصدع عن النبات ، وكما تتصدع عن النبات بعد فنائه وصيرورته رفاتاً فيعود كما كان ، فكذلك تتصدع عن الناس بعد فنائهم فيعودون كما كانوا بإذن ربهم من غير فرق أصلا([182]) . وهذا مشهد تمر عليه العيون في غفلة ، ولكنه حين يعرض هنا كأنه جديد،وإنه لكفيل حين تتملّاه العين أن يوقع في النفس تأثراً وجدانياً خاصاً،وهو لوحة منسقة يوجه إليها البصر، لينقل البصر ما يراه إلى النفس،ليقع في النفس ما يقع من الأثر، واستخدام الأسلوب التصويري هنا له دلالته الخاصة ، لأنه يتبادر إلى الفهم أنه في مقام الجدل والمنطق أن يكون الأسلوب الذهني هو الذي يتبع فيه ،ولكن الأسلوب المتبع هنا هو التصوير التشخيصي ،فهو كفاء هذا المقام،استقلت فيه الكلمة الواحدة بإكمال معالم الصورة بجرسها الذي ألقى في الخيال ما ألقى من المعاني والصور .

ومن هذا أيضاً كلمة{ يلّقون} في قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾([183]) لقي يلقى : يجد ، ولقي ولقاء : كل شيء استقبل شيئاً أو صادفه ،واللقي :مثال العصا الشيء الملقى المطروح([184]) ولقاه ولاقاه ملاقاة ولقاء : قابله وصادفه ([185]).

إن التشديد في الكلمة ، والتردد الصوتي الطويل في أصداء الكلمة لم يكن عبثياً ، ولكنه الأكثر ملائمة لجو الآية على الإطلاق ، جو الإكرام ، والإعظام ، لهؤلاء المستحقين لذلك ، حيث استعير فعل يلقى لمعنى يجد ، تشبيها لوجدان النسبة بلقاء الشخص ، وما يتضمنه من إشارة إلى أنه شيئ يرونه بأعينهم ،وتتمتع بلذته نفوسهم وأجسامهم ، مما يزيد التصوير وضوحاً ، وقرباً من النفس، وكأنه شيئ مشاهد أمام العين ، ومن هنا كان اختيار الكلمة دون ما عداها ، أو حتى ترك التضعيف فيها فلم يقل يلّقون بدون التضعيف،حتى لا يقع لفظ مكان آخر فتضل المعاني بين الاحتمالات وتتوه الأغراض والمقاصد في ظلال التمويه ،فلو اقتصر التعبير على مجرد الإيجاد لم يكن هذا الخيال

[182]) نظم الدرر – ج ٨ – ٣٩١

[183]) سورة الفرقان آية (٧٥)

[184]) المصباح المنير – أحمد محمد الفيومي – ج ٢ – ٥٥٨ المكتبة العلمية بيروت

[185]) المعجم الوسيط – ٢ – ص ٨٣٦

والتصوير ليصل إلى الذهن والفهم ، فلم يكن ليصل الإكرام إلى أعلى مراتبه ، وأقصى صوره ، ومنتهى معانيه ، فالهدف هو تأكيد صورة السعادة والاطمئنان ، فيها الضيافة والتكريم ، ولتستريح النفوس المؤمنة إلى أنها راضية مرضية وهو مشهد منسق الخطوات،يتهيأ المكان لاستقبال المكرمين،فيبدأ باستعراض المكان ؛ بعرض الغرفة المقام فيها ، ثم الملاقاة بالتحية والسلام ، إن اللفظة توحي بالمصادفة،مما يشعر بأنهم وجدوا ما لا يتوقعون ،كما توحي بالطرح مما يعني شدة وقوة الضيافة ،وهذا ما لم تكن كلمة يجدون لتعطيه في المعنى ، فإذا أضفنا إلى المعنى تضعيف الكلمة زادت الصورة تكريماً وإكراماً ، مما زاد من تنعم هؤلاء ، ولهذا جاءت الكلمة في قوله تعالى "ولَقاهم نضرة وسروراً"([186]) مضعفة أيضاً للدلالة على أنها تلقيه عظيمة فيه([187]) وبهذا كان الجرس الصوتي أحد أسباب زيادة المعني الدلالي للكلمة البلاغية ،ولهذا لم ترد إلا في هذين الموضعين مضعفة دلالة على خصوصية الحدث ٠

ومن هذا الجرس كلمة {فزّع}في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سبأ : ٢٣]

فزع :الفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف،وهو من جنس الجزع ويقال : فزع إليه ، إذا استغاث به عند الفزع ، وفزع له : أغاثه ([188]) والإفزاع : الإخافة والإغاثة أيضاً ، وكذا التفزيع من الأضداد ، يقال :فزّعه أي أخافه ، وفزع عنه أي كشف عنه الخوف([189]) وعداه بعن لأنه في معنى كشف الفزع ، وهو في الأصل مصدر فزع منه فزعاً وفزْعاً ([190]) وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل .

إن الكلمة وردت في سياق عرض أحوال الموقوفين يوم القيامة، بانتظار أمر الشفاعة وأن هناك استئذاناً يستدعي الترقب والانتظار للجواب ، ويبقون وجلين ، فزعين لا يدرون ما يوقع لهم الملك الأعظم على رقعة سؤالهم ، وماذا يصح لهم بعد عرض حالهم ، حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب

---

[186]) سورة الإنسان آية (١١)

[187]) نظم الدرر – ج ٨ – ص ٢٦٩

[188]) المفردات – ص ٣٧٩

[189]) مختار الصحاح للرازي – ص٥١٧ ت/ محمود خاطر ط١٤١٥هـ-١٩٩٥م مكتبة بيروت ٠

[190]) لسان العرب – ج ٨ – ص ٢٥١

الشفعاء والمشفوع لهم بظهور تباشير أنوار الإجابة من آفاق رحمته قالوا: هذا هو الحق(١٩١) فانظر إلى لفظة فُزّع وتأمل غرابة فصاحتها ، لتعلم أن الفكر لا يكاد يقع عليها ،وأن صيغة التفعيل للسلب تعني إزالة الفزع ، كقولهم قذّيت عينه ، إذا أزلت عنه القذى ،والكلمة جاءت على غاية الإتقان وكمال الإحكام في بيان المقصود،فلن تصف أي لفظة أخرى حالة الخوف القصوى التي ينخلع فيها القلب مثل هذا الوصف الدقيق الذي منحتنا إياه اللفظة ، ولن تعطي إزالة له بمقداره سواها ، ليرجع إليهم رجاؤهم فتسكن لذلك قلوبهم ، وقد شخصت الكلمة حالة الترقب، فأبرزت صورة للمعنى يتخيلها السامع ،فوصفت حالة وجدانية معنوية ، فانتقل الخوف من معنى مجرد إلى شيء ذي كثافة ووزن ! يحرك ويزال ويرفع ، فأبرزت موطن الأمان بعد موطن الفزع ، ورسمت كيفية الاستبدال وكيف تمت،فإذا وقعت كلمة أخرى موضعها لن تجد لها هذا الصدى من الظلال، فلو قيل : كشف عنهم ، أو أزال الفزع ، لم يكن رسم صورة التملص العنيفة ليتم ، ولا ذلك التطويل في الفعل ليتخيل ،لولا الجرس ،ففيه إطالة في التفصيلات ،ووصف بعض حلقات المعنى ،فكان اللفظ فيه السرد والتصوير والإيجاز،وتحقق الإعجاز .

ومن هذا القبيل كلمة{ مدّخل } في قوله تعالى ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (١٩٢)

المدخل : داخل الشيئ ، خلاف خارجه ، ودخلت الدار : صرت داخلها فهي حاوية وهو مدخل البيت بفتح الميم : موضع الدخول،و يعدى بالهمزة ، فيقال :أدخلت زيداً الدار مدخلا بضم الميم(١٩٣) وردت كلمة المدخل في سياق وصف الله تعالى للمنافقين بالجبن والخور في الحروب ، وأن مظاهر الشجاعة مجرد تمويه ،فهم جماعة تائهة لا تدري أين تذهب بحثاً عن الأمن من الخوف ،وهرباً من الشدة ،فيظهرون الإسلام تقية بسبب خوفهم أن تفعلوا بهم ما تفعلوا بالمشركين(١٩٤) وعبر هذا الوصف جاءت كلمة مدخل في سياق عرض أشكال المهارب على سبيل الترتيب،التي يبحثون عنها للهروب من القتال أثناء الحروب ، فحدد هذه الأشكال بأنها الملجأ ، والمغارات ، والمدخل، وقد يظن صاحب النظرة العجلى أنها مترادفة المعنى ، لكنها في الحقيقة ليست كذلك،فكل منها يوضح

---

١٩١) روح المعاني – ج ٢٢ – ص ١٣٧

١٩٢) سورة التوبة آية (٥٧)

١٩٣) المصباح المنير – ص١٩٠

١٩٤) روح المعاني – ج ١٠ – ص ١١٩

شكلا خاصاً للمهرب الذي يبحثون عنه ،ولقد وردت لفظة المدخل عبر استعراضها ، والتي يراد بها المكان الضيق ، الذي لا يستطيع أن يدخله الخائف إلا بجهد، ولا يمكن أن يستقر فيه إلا تضاؤلا والتصاقاً ، وتوحي هذه الكلمة بجرسها وصوقما،ووزنها،وتشديد الدال فيها بهذا المعنى ([195])والكلمة مقصودة بذاتها ، لما كان الملجأ يمثل الشكل المألوف ، والمغارة تمثل بواطن المهارب ،وهي النقوب الواسعة في الجبال ،والوصول إليها سهلا، فذكر المدخل الذي يدخلونه بغاية العسر والصعوبة والضيق كنفق اليربوع ينجحرون فيه ([196]) ويندسون فيه([197])ولذا كان تشديد الكلمة من أدخل المزيد ،أي مكاناً يدخلون فيه أنفسهم،أو يدخلهم الخوف فيه وهذا ما أشارت إليه بصيغتها والتي أدت المعنى بدقة ووضوح،فلفتت الأنظار بجرس نغمتها إلى شدة صفة الخوف بداخلهم ، وإظهار سمة يبطنونها ، فأضاف الجرس من الظلال للمعنى مما لو قيل :مكاناً ضيقاً،أو قيل : نفقاً ،وأضاف من التخييل والتجسيم والتصوير ما كنا لنفقده بغيره من الكلام ، فهذا النفق الضيق يشبه نفق اليربوع في حجمه ، كناية عن قبولهم هذا الوضع المذل المخزي وتفضيلهم إياه عن القتال في صفوف المسلمين مما حقق غرض الصورة كاملا،والمنظر كله مخابئ وسواتر ،وهذا الغموض يناسب نفسياتهم الغامضة أيضاً،ولذا شبههم في إسراعهم لهذه الأماكن بالدابة والفرس الجموح الذي لا يرده لجام ، بجامع غاية الإسراع ونهاية الرغبة التي لا يردها شيء على سبيل الاىستعارة المكنية في يجمحون،وهكذا كان التشديد فيه إلحاحاً بالمعنى ،ووقوفاً على أسرار الوصف تفوت بفواته •

ومن هذا الجرس كلمة {يفتر} في قوله تعالى﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾([198]) فتر فتوراً : لانّ بعد شدة ، أو سكن بعد حدة ونشاط ([199]) وفتر عن العمل فتوراً : انكسرت حدته ، ومنه انكسر الحر: إذا انكسر فترة وفتوراً([200]) وردت كلمة يفتّر في سياق استعراض ووصف العذاب

---

[195]) من روائع القرآن – ص ٢٠٠ – د/ محمد سعيد البويطي ط حلب – ١٩٧٢م

[196]) روح المعاني – ج ١٠ – ص١١٩

[197]) الكشاف – ج ٢ – ٢٦٨

[198]) سورة الزخرف آية (٧٥)

[199]) المعجم الوسيط – ج ٢ – ص ٦٧٢

[200]) المصباح المنير – ج ٢ – ص ٤٦١

، ولا يوجد أخصر منها ولا أدق في تصوير دوام وأبدية العذاب بالنسبة للكافرين ، فها نحن أولاء أمام المشهد الختامي في أحوال الكافرين ، وهو مشهد الحسم والحكم في القضية ، والخيال هنا يستعرض ويكرر الاستعراض،وكلما زاد فزعاً همت النفس منه فراراً ،وهذا المشهد ليس فيه تفاصيل كثيرة ، بل تأكيد الأبدية ، وتأكيد اليأس وكانت اللفظة الموحية بعدم فتور العذاب عمن لابسه ، وكان اختيارها دون ما عداها لتأكيد عدم إضعاف النار بأي نوع من الضعف،ففيّ التفتير نفي للفتور من غير عكس،وأنها نار لا يعتريها نقصان أصلا كما يعهد في عذاب الدنيا ،لأنهم وقودها فقال لا يفتّر ، أي لا يخفف ولا ينقص ، من قولهم فترت الحمى،إذا سكنت قليلا و نقص حرها ([201]) والتركيب للضعف،ولذا كانت الكلمة أنسب بالمقام ، لأن تضعيف الفعل زاده ظلالا،كما كان التصوير البياني بالاستعارة التبعية،والذي نفتقده لو استبدلنا اللفظة ففرق بين التعبير بنفي التخفيف وبين التعبير بالفتور، فما بالنا بزيادة الصيغة بتضعيف الفعل ! فهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة ،فالمقصود تفظيع الوصف وتعريته من أي لبس،فكانت الكلمة كفاية للمراد توضيحه ،فأتى لها من الوقع ما لا تطيق الألسن الفصيحة أن تعبر عنه ، وكان الجرس الصوتي سبباً من أسباب الالتفات والانتباه إلى المعنى ولما كان انتظار الفرج مما يخفف عن المتضايق نفاه بقوله "وهم فيه مبلسون "أي ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج([202]) فاكتملت صورة التعذيب بالتيئيس من زواله .

ومن هذا الجرس كلمة{ تصعّر }في قوله تعالى﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾([203]) التصعير في اللغة : ميل في الوجه،أو في أحد الشقين،أو داء في البعير يلوي عنقه وصعّر خده : أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر، وربما يكون من خِلْقة ، و الصيعرية : سمة في عنق البعير([204])حينما تقع على أذن السامع اللفظة يتوارد على ذهنه كل هذه الدلالات ،أو بعض صور منها يتناسب مع المقام ، ويدرك السبب في إيثار اللفظة على ما سواها من الألفاظ ،لأنها توحي بمعان ودلالات خاصة ، وتشير إلى تعدد الصور فيها ، فضلا عن الصورة البيانية ،التي تزول بزوال اللفظة فكان الإيجاز البلاغي ،مع التصوير البياني،مع الدقة الدلالية،والإيحاءات التي ترسم لها خطاً ، ولذا آثر التعبير

[201]) الكشاف – ج ٤ – ص٢٦٦

[202]) نظم الدرر – ج ٧ – ص ٥٢

[203]) سورة لقمان آية (١٨)

[204]) القاموس المحيط – ج ٣ – ٢٧٦

الكلمة دون كلمة ، تتعالى ،أو تتكبر، أو تغتر، أو تعرض ، لأنها ذات إيحاء بالتشوه والمرض ، إذ صورت المتكبر على الناس بصورة البعير الملوي العنق المتجه إلى غير ما يجب أن يتجه إليه ،على سبيل الاستعارة المكنية ، وإسناد التصعير للخد استعارة تخييلية ، قرينة المكنية ، لأن التصعير داء يغلب في الإبل ، والغرض منها التشويه والتنفير، فحول التعبير مظاهر التعالي ، إلى مظاهر التحقير والسخرية ،فكان التعبير من لوازم البيئة العربية ،وخصائصها ،وتلك ميزة تضاف للتعبير على ما دونه ،وتبرز خصوصية الأداء القرآني في التعبير،إن الإبل كان العرب أدرى الناس بأحوالها وعندما تكون الاستعارة من بيئتهم تكون أدعى للفهم والقبول والتأثير وأمراضها ، ٠

وآخر ما نختم به هذا النوع من الجرس كلمات { حلاّف – همّاز – مشّاء – منّاع } في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾"(٢٠٥)

هذه أربعة مذام في شخص الوليد بن المغيرة ، أو في أبي جهل كما قيل،وكما يقال العبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ،والذي يعنينا كبلاغيين هو الصورة البلاغية والصورة هنا تميزت بالجرس ، والصوت العالي ، الملفت للانتباه في أربع كلمات وردت متتابعة في وصف شخصية واحدة ، أولها : حلاّف : كثير الحلف ،ولذا بنيت على صيغة فعّال، للدلالة على كثرة وعوده وأخباره ، وفيها كناية عن عدم المبالاة بالكذب،وبالأيمان الفاجرة،فنشأ عنها سقوط تعظيم الحق،فصار صاحبها لا يعرف معروفاً ،ولا ينكر منكراً،ولما كان كل من اتصف بصفة- لاسيما إن كانت تلك الصفة دنية – أحب أن يشاركه الناس فيها ليسلم من الانفراد بها قال : همّاز : عيّاب طعّان ، من الهمز، وأصله في اللغة الضرب طعناً باليد،أو بالعصا ،ونحوها ثم استعير للذي ينال الناس بلسانه(٢٠٦)على سبيل الاستعارة التبعية ،والجامع الإيلام والإيذاء في كل،أو استعارة مكنية،إذ شبهه بالذي يهمز الدابة في بطنها كي تتحرك عن مكانها،وجرسها يوحي بأنه كثير العيب للناس في غيبتهم ، وهو مخصوص بالغيبة ، كما أن اللمز مخصوص بالمواجهة(٢٠٧)ولما كانت النميمة أشد من الهمز زاده قبحاً ووصفاً بقوله : مشّاء بنميم ، وصيغة المبالغة وجرسها راجع إلى قوة الصفة مبالغ في ذلك بغاية جهده ، فلا يقتصر على مجرد النقل ،بل يسعى به إلى الإفساد والسعاية(٢٠٨) وهي استعارة في بيان تجشم الإنسان في السير

---

٢٠٥) سورة القلم آية (١٠-١١- ١٢)

٢٠٦) روح المعاني – ٢٩ – ص ٢٧

٢٠٧) الفروق – ٣٨٢

٢٠٨) الكشاف – ج ٤ – ص ٥٩٠

بالنميمة ،ولما كان من كان هكذا يريد إعلاء نفسه بهضم الناس قال : منّاع للخير : كثير المنع وشديدة[٢٠٩] لإرادة الاستئثار بالممنوع،ليكون الغير محتاجاً إليه وعاكفاً عليه،أي بخيل ممسك ، وهكذا أورد التعبير كل لفظة في مكانها المناسب ،ببراعة فائقة ، والتزم الدقة في مراعاة دلالة الألفاظ ، وإيرادها موزدها،بطريقة الترتيب والتلازم،وندرك ذلك عندما نستبدل التعبير بقولنا كثير الحلف ،ويعيب الناس،و يفسد بينهم ، ويستأثر بالخير، بمجرد استماع الكلمات الأخرى،نحس بعدم جدوى المقارنة،فلا تصلح كلماتنا المستبدلة بأن تكون مترادفات لها ، لعدم تساويها في المعنى ،والدلالة ،فضلا عن النغمة الصوتية التي فقدناها بالاستبدال،مما يجعلنا نؤمن بأن هذا المكان خلقت له هذه الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تؤدي المعنى الذي أفادته أختها فليسا سواء في الدلالة ، ولا مثلين في المضمون ،مما يؤكد أن القرآن يستعمل الجرس للفت النظر للمعنى ،وقوة التأثير الوجداني،والحسي،للكلمة التي فيها الجرس الصوتي فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية ،ورسم صورة شاخصة استقل فيها لفظ واحد بإكمال معالم صورة،وتلك نقلة بعيدة لا نستطيع أن نتطلع إلى قمتها البعيدة، وإنما نلقي الضوء على بلاغتها،باعتبارها قمة بلاغية نستمد منها في بعض الأساليب فأعطى التعبير الصوتي هنا من الصور البيانية ما لا تعطيه كلمة أخرى ، فكانت حلاّف كناية عن الأيمان الكاذبة،وكانت همّاز استعارة للإيلام،والتأذي،وكانت منّاع كناية عن البخل الشديد ، وتضيع هذه الصور البيانية بضياع التعبير، فكانت خصوصية الأداء،والتعبير عبر وسيلة الجرس الذي أبرز الصورة واضحة شاخصة كما دلت صيغ المبالغة هنا على الحرفة والصنعة،والمزاولة ،والمداومة،لأن صاحب الصنعة يداوم على صنعته،مما يدل على نهاية الغاية في الوصف .

٢٠٩) نظم الدرر – ج ٨ – ص ١٠١

الخاتمــــة

١- التصوير بالجرس أحد الأساليب البلاغية القرآنية ،التي انتهجها في الحوار ، حصراً للمعنى والحدث ، يحدد رقعة الأجزاء والصورة ٠

٢ – الجرس الصوتي يؤكد بلاغة استعمال القرآن للفروق اللغوية بين الكلمات فمثلا استعمل زحزح مكان نحي ،واستعمل عتل مكان غليظ جافي ،واستعمل حصص مكان ثبت واستقر،وما كان ذلك إلا لأن الكلمة التي فيها الجرس بها إيحاءات ومعان تفتقد لو استعملنا غيرها ،بسبب فروق الدلالة ،وتفاوت المعنى ،وتخرجه عن صفة الفصاحة ،ونطفئ رواءه ٠

٣- يؤكد الجرس أن قضية الترادف في التعبير القرآني غير واقعة ، إذ كل كلمة لابد وأن تؤدي معنى جديداً،وتبعث في النفس إيحاءات خاصة،مثل كلمة خصاصة ، والتي تعني الفقر والحاجة ،إن الكلمة الأولى جرسها ينشط الخيال، وأشارت إلى عين الفقر، وهذا معنى لا تعطيه الثانية ،وأيضاً كلمة كبكبوا ،تعطي من الدلالات ما لا تعطيه كلمة ألقوا ،أو دفعوا ، فيبدو لون من البلاغة الظاهرية والفصاحة اللفظية في الحوار القرآني يحدد المزايا المطلوبة من الكلمات ٠

٤ – الجرس الصوتي يتميز بإبراز الصورة شاخصة ، فتتعدد فيه الصورة البيانية المصاحبة له ، في كل المواضع الوارد فيها ،حيث نجد التشبيه في كلمة عتل : إذ شبهه بالعتلة ،وهي حديدة كالفأس ، وكلمة أبابيل ،إذ شبههم بالإبل المجتمعة ،كما تأتي الاستعارة المكنية في كلمة يجأرون،وفي كلمة قمطرير،وفي تصعّر،والاستعارة التبعية في يزلقونك ، و يلّقون ،وغير ذلك من الكلمات الواردة معنا أثناء الدراسة ، كما كانت الكناية في كلمة دكّ كناية عن الاستواء،وكلمة انشزوا كناية عن الارتفاع وكلمة يدّعون كناية عن المهانة ، وكلمة مدّخل كناية عن الجبن ، إلى غير ذلك من الصور البيانية التي وقفنا عندها عبر الدراسة ٠

٥ – اختصاص الجرس في كثير من مواضعه بمواضع العذاب والذم ، الأول : مثل دمدم،و صرصر،وأبابيل،و حسيسها ،وغشّاها،ويجأرون،و يفتّر، لنسفعاً ، مما يؤكد خصوصية الحدث ، والثاني :كما في همّاز،و يزلقونك ،ودسّاها،و اثّاقلتم،و ضيزى مما يؤكد خصوصية المعنى٠

٦- الجرس الصوتي يحدد إما كيفية الفعل مثل وكزه ،أو كمية الفعل مثل : نضّاختان وهذه خطوة مشتركة بين التعبير والتصوير،تزيد من دقة الرسم ،وتوازن الصورة٠

٧ – يصور الجرس الإيجاز البلاغي في أعلى صوره ، فمثلا كلمة حصص تعني الثبات والظهور والكسر واستئصال ما عداه،وكذلك كلمة مدرارتعني التتابع والكثرة والقوة،وحينما تقع على السمع تتوارد كل هذه الدلالات،أو بعض صور منها يتناسب مع المقام .

٨ – الجرس فيه إطالة في التفصيلات ،ووصف حلقات المعنى ، استقلت فيه الكلمة الواحدة بإكمال معالم الصورة ، يتخيلها السامع، تفقد بفقده وزواله، مثل كلمة : فزّع لو قلنا كشف الفزع لم يكن المعنى الدلالي للكلمة من البلاغة في شيئ ،وكما في كلمة يفتّر ،إذ لو قيل ينقطع ،لضاع التفصيل، وتوارت حلقات من المعنى ،لا نراها ولا نتخيل مقدارها ، مما يؤكد بلاغة الكلمة المفردة في القرآن .

٩– الجرس الصوتي يحدث انقلاباً تأملياً في الذهن ، إذ تتيح الكلمة الفرصة لألوان شتى من التأملات ، تذهب طولا وعرضاً ، كما في كلمة ضيزى ،و كلمة أغطش . ١٠– بعد الاستقراء لوحظ أن الكلمات المصورة للجرس لم ترد في أكثر مواضعها إلا قليلا ، بل وردت مرة واحدة ، مثل: ضيزى ،وحصحص ، وقمطرير،و لنسفعاً ودمدم ،وخصاصة ، أو وردت مرتين مثل : دسّ ،وزحزح ،وعتل ،والإل ،ووردت ثلاث مرات مثل : صرصر ،مما يؤكد أن التصوير بالجرس له خصوصية في الاستعمال القرآني ،ولذلك لم تكثر مواضع الورود فيه .

****

** المـــــراجـــــع والمصـــــــادر **

١-إعجاز القرآن – مصطفى صادق الرافعي – ط دار المعارف ١٩٦٩م ٠

٢-أحكام القرآن – ابن العربي محمد بن عبد الله الأندلسي – المكتبة الفيصلية ٠

٣-البحر المحيط-أبو حيان الأندلسي- دارالكتب العلمية بيروت-١٤٢٢هـ -٢٠٠١م٠

٤-بديع القرآن -ابن أبي الإصبع – ت/ حفني شرف- ط أولى نهضة مصر ١٩٥٧م٠

٥-التحرير والتنوير- الطاهر بن عاشور – الدار التونسية – ١٩٩٧ م٠

٦-التصوير الفني – سيد قطب – دار الشروق – ط سادسة ١٤١٣هـ -٢٠٠٢م ٠

٧-الجواهر الحسان في تفسير القرآن- للثعالبي – مؤسسة الأعلمي – بيروت٠

٨ دراسات جديدة في إعجاز القرآن – د/ عبد العظيم المطعني- مكتبة وهبة ٠

٩ -الدر المنثور- للسيوطي – دار هجر للبحوث – ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ٠

١٠- ديوان الأعشى – شرح د/ عمر فاروق الطباع – دار القلم – بيروت ٠

١١-روح البيان – إسماعيل حقي – دار إحياء التراث العربي- بيروت ٠

١٢-روح المعاني – للألوسي – دار إحياء التراث العربي – بيروت ٠

١٣-الصحاح في اللغة -إسماعيل حماد الجوهري- ت/ أحمد عبد الغفور عطا – دار العلم للملايين- بيروت -١٤٠٧هـ – ١٩٩٧م ٠

١٤- غرائب القرآن و رغائب الفرقان- للنيسابوري- دار الكتب العلمية- ط أولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ٠

١٥- فتح القدير- للشوكاني – المكتبة الفيصلية – مكة.

١٦-الفروق في اللغة – أبو هلال العسكري – مكتبة وهبة – ١٩٩٦م.

١٧ – القاموس المحيط – الفيروزآبادي محمد بن يعقوب- دار الجيل – بيروت.

١٨- الكشاف – للزمخشري- دار المعرفة – بيروت –

١٩-لسان العرب-ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي-دار صادر بيروت ط أولى.

٢٠-المثل السائر- ابن الأثير ت/ بدوي طبانة – أحمد الحوفي- نهضة مصر-

٢١- المحرر الوجيز- ابن عطية الأندلسي- ت/ عبد السلام عبد الشافي – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢٣ه – ١٩٩٣م .

٢٢-مختار الصحاح- للرازي-ت/ محمود خاطر-مكتبة بيروت-١٤١٥ه -١٩٩٥م .

٢٣-المخصص – أبو الحسن الأندلسي (ابن سيده) ط أولى –ت/ خليل إبراهيم –دار إحياء التراث العربي – بيروت -١٤١٧ه -١٩٩٦م.

٢٤ -المزهر في علوم اللغة- للسيوطي – ت/ علي البجاوي وآخرين- دارالمعارف.

٢٥- المصباح المنير- أحمد محمد الفيومي – المكتبة العلمية – بيروت .

٢٦- معاني القرآن وإعرابه-الزجاج أبو إسحاق إبراهيم- ت/ عبد الجليل عبده شلبي – عالم الكتب – بيروت – ١٩٨٨م .

٢٧- معاني القرآن- الفراء أبو زكريا- ط ثانية -عالم الكتب- بيروت -١٩٨٠م.

٢٨- المفردات في غريب القرآن- للراغب الأصفهاني- مكتبة الأنجلو- القاهرة ٠

٢٩- مقاييس اللغة - أحمد بن فارس- ت/ عبد السلام هارون- اتحاد الكتاب العرب ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م٠

٣٠- من أسرار التعبير في القرآن : صفاء الكلمة- د/ عبد الفتاح لاشين- دار المريخ الرياض - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ٠

٣١- نظم الدرر- للبقاعي- مطبعة دائرة المعارف- ط أولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م٠　٣٢- النكت والعيون - أبو الحسن الماوردي - دار الكتب العلمية - بيروت ٠

****